مجموعة قصصية

ناسك الصومعة

سناء شعلان

نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Club

ناسك الصومعة

مجموعة قصصية

سناء شعلان

إضاءة

هذه مصافحة أخرى مع الإبداع، يُبادر إليها نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي، الذي حرص دوماً على الاحتفاء بالمبدعين من مختلف ربوع وطننا العربي، وفتح مواهبهم وإبداعاتهم على كلّ ما يتوفّر لديه من فضاءات. فقد احتضن صالون الجسرة الثقافي عدة مواهب في مجالات الشعر والقصة، بل إنّ جيلاً من الأدباء الشباب قد تخرّجوا من هذا الصالون.

وشجّع النادي الإبداع مسموعاً ومكتوباً، فأسهم في عدة إصدارات، وهاهو اليوم يقدّم للقارئ العربي هذه المجموعة القصصية للكاتبة الأردنية سناء كامل شعلان. وهذه المجموعة التي تحمل عنوان "ناسك الصومعة" تمثّل طور النضوج في فن الكتابة القصصية عند هذه الكاتبة الشابة المتألقة.

آملين أن يحقّق هذه الإصدار إضافةً جيدةً للمكتبة العربية، وراجين كذلك أن يستمر تواصلنا مع كلّ المبدعين في وطننا العربي الكبير.

نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي

الفِهْرست

إضاءة	٣
ناسك الصومعة.	٧
المجاعة.	٢٧
السجّان.	٣٣
حكاية لكلّ الحكايات.	٣٩
يوميات حروف.	٤٩
عبودية.	٦٩
عام النّمل.	٧٩
ولادة متعسّرة.	٨٥
حدث في ليلة ماطرة	٩١
أقاصيص رجل لا ينام.	٩٧
حذاء عنترة.	١٠١
الموزة اللغز.	١٠٧
حتى النّصر.	١١٣
إذن استثنائي خاص.	١١٧
زوجة الحذّاء.	١٢١

ناسك الصومعة

"لم يكن ناسكاً في تاريخٍ ما، بل كان
عالماً من الرّقة والتداعي العذب في
الزمن المفترض للماء".

(١)

سِفْر التكوين: "الدخول في الصومعة"

صومعة العشق

والده كان رجل حرب، لم يعرف من الدنيا إلا الأراضي اليباب، والجنود المُعذبين بالموت، وبالقتل، وبالأوامر الصارمة، وبالإجازات القصيرة، ولكنّه كان عاشقاً من الدرجة الأولى، وكان يجيد أدوار الفرسان العاشقين، رأى تلك السمراء النحيفة ذات الملامح البارزة، وعظام الذقن الحادّة، سليلة أرض الجبابرة في صبيحة يوم صيفي قائض، كانتْ تكبره بسنواتٍ من العمر والصرامة، وتشبهه بالعطش إلى ذلك المسمّى بالحبّ، يومها أشاحتْ بوجهها عنه، ثم أغمضتْ عينيها كي لا تتسرّب ملامحه المثيرة المغمورة برجولةٍ جارفةٍ من ذاكرة نظراتها.

في المساء جاء وخطبها من والدها، فوافقتْ على مضض،

وأجادتْ إخفاء فرحة عارمة أصابتْ حواسها بإعصار، واستغرقتْ في بكاء عميق تنــزّى إلى مسمعيه، فأصابه بشهوة جارفة؛ إذ كان يعشق النساء الرافضات المتمنّعات.

ومن تزاوج العشق والصرامة وُلد هو، فكان وليد العشق، فعاشَ أسير صومعته، حيث الاحتراق بشهوة التمنّي.

صومعة الشهادة

اسمه أحمد، وله من الصفات ما ينبغي لاسم أحمد، ملامحه طيبة رائقة، شفتاه مكتنزتان فيهما وجل وارتعاشة غير جريئة، وجنتاه متوردتان بالقدر الذي تسمح به سمرته اللذيذة، وشعره أسود ناعم تأسر خصلاته المنسدلة غلائل بشرة وجهه الملائكي، صوته خفيض عميق وكأنّه خارج من بئر عميقة، وفي رائحة أنفاسه رذاذ ماء بحيرات ثلجية سادرة في عميق الأرض الحُبلى بصمته ودفئه.

من سجل الأبرار والشهداء والأحباء الراحلين اختار له والده اسم أحمد، فهو أحمد الابن الذي يحمل اسم أحمد الخال الذي مات شهيداً على أرض مقدّسة، فحطّم قلوب أحبّته، وخلّد اسمه بماء الموت.

ولأنّه يحمل اسم شهيد من الأبرار، فقد انطبع في فهمه الطفولي الساذج أنّ عليه أن يستشهد حتى يدفع ثمن هذا الاسم الشريف الذي قُلّد به، ومن يومها دخل في صومعة الشهادة، حيث رائحة المسك، ودم الخلود، ورائحة الجنّة، ولم يخرج.

في صومعة الرجولة

في البداية كان والده ذو الحذاء المركب والجسد الفارغ والعينين الصغريتين يجرّه جراً هو وأخوه إلى ساحة المعسكر الذي يرأسه في أقصى الصحراء حيث تخوم الماء والعدو والانتظار، ولكنّه بعد ذلك بات يسابق والده إلى سيارته العسكرية الخاصة بوالده بركبته العليا في الجيش كي يصلوا مبكرين إلى المعسكر بعد فصل دراسي طويل، ليقضي وأخوه هناك عطلة صيفية استثنائية، لا لعباً ولا حارات ولا عصابات من الصبية المشاكسين فيها على غرار ما اعتاد أترابه، بل كلّها نظام وصرامة وتدريب على أخلاق الجندية، وعلى أخلاقيات المنتسبين إليها.

فنشأ على الصرامة والجلد والتصبّرسعيداً راضياً بل وفخوّراً بنشأته،وإن كان يُلقى القبض على نفسه الطفلة تمتد رغم أنفه بعينين متحسّرتين إلى أترابه من الصبية الذين ينقطعون إلى

التسلية واللهو واللعب، ولا يعرفون معنى صرامة الجندية، حينها يؤنّب نفسه كما كان والده سيؤنّبه لو علم بأمنياته، ثم ينسرب طائعاً في صومعة الرجولة، حيث بناء الجسد والروح، والقيام بالعبء، ويبتسم بعمق كلما ربتَ أحدٌ من الجنود على كتفيه الصغيرتين؛ لأنّه طفل جندي أو جندي طفل.

صومعة الموت

سمع عن الموت كثيراً، وحفظ الكثير من قصصه المحزنة والمخيفة في روايات مرفوعة إلى جنود المعسكر الذين ترعرع بينهم، وإن لم يسمع والده يحدّثه يوماً عنه، وكأنّه ما صادفه أبداً وجهاً لوجه في المعارك مراراً، ولا صارعه بعد هزيمة الأمة أمام عصابات الضباع، وكاد يصرعه عندما توقّف قلبه الضعيف أمام هزيمة وطنه، ولكنّه انتصر عليه ببسالة، وبقي يحمل في جيب قميصه علبة دواء بيضاء صغيرة لكي تنجده في أيّ لحظة أزمة تنقضّ على قلبه المنكوب بضعفه في لحظة استسلام.

لكنّ العمل في متجر اللحوم الذي اكتراه والده منذ زمن جعله يواجه الموت مراراً في كلّ يوم، ويحفظ مكرهاً عن ظهر قلب طقوس ثغاء الموت، وتقاليد السلخ والفرم والتقطيع. أصابه

تقزّز شديد من يديه، إذ كانتا الشريك الدائم في كلّ وليمة موت، ونفرتْ نفسه من الطعام، وكاد يموت جوعاً، فأدرك والده علّة ابنه، فأغلق متجره بين ليلة وضحاها، وحرّم دخول اللحم إلى البيت لأشهر حتى ينسى أحمد طقوس الموت، وما لبثتْ صحته أن استقامتْ، ومن جديد تورّد خدّاه بماء الحياة والصّحة، وإن كان قد سقط وإلى الأبد في صومعة الموت، التي تأسر النفوس، وتجثو على الآمال، وتجعل البشر يبجّلون لحظات الحياة.

صومعة الجسد

كان طفلاً صغيراً يافعاً تعرّف على وظائف أعضائه السّرية وعلى مسمّياتها الصريحة من أترابه الذين كانوا يصفعون أذنيه في الأزقة والحارات بكلماتهم الجريئة التي لم يألفها في بيته ذي التقاليد الصارمة والكلمات المنتقاة. وعرس ابنة تاجر الخردة محمود العزب كان أوّل عرس يحضره بعد أن وقع على أسرار جسده الصغير.

لم يكن عرساً بقدر ما كان مهرجاناً حَفِلَ باللحوم والأطعمة الدسمة وموائد الطعام التي مدّت على طول الحارة الغربية للفقراء وأهل السبيل وأهل المنطقة الذين انهالوا على المكان من كلّ

حدب وصوب، أمّا هو فقد جلس في الصوان ذي الستائر الحمراء والأرائك المنجّدة حيث جلس والده وكبار المدعوين من تّجار ومتعلّمين وموظفين، تابع بفضولٍ رهيبٍ الراقصات الزنجيات اللواتي أتين من مكان مجهول لطفولته بأجساد سمراء ضخمة، وشعور مجدّلة بالخرز والريش، وأعضاء معرّاة وسافِرة، كان رقصهنّ عجيباً لم يألفه من قبل، وكانتْ أثدائهنّ المنظر الأكثر بروزاً وظهوراً في مشهد حضورهنّ.

انفضّ العرس مع ساعات الصباح، وحصل العريس على العروس، في حين كان نصيب التاجر محمود تلك الزنجية السمينة التي سافدها في حظيرة بيته لقاء زهيد المال، وعجب من اكتناز أعضائها، وعظيم شهوتها.

وانقضتْ ليلة العرس، وجاءتْ ليالي السّهر والتندّر التي دارتْ في جلّها حول وصف أعضاء تلك الزنجية، إذ تفنّن التاجر محمود بوصفها، حتى خالَ السامع أنّه يتحدّث عن أعضاء نبتتْ لها امرأة لا امرأة لها أعضاء، في حين كان يغصّ الرجال بالتعجّب والضحك والشهوة والكلمات البذيئة، أمّا أحمد فقد غصّتْ طفولته برثاء مرير لتلك الزنجية التي استباح التاجر محمود جسدها مقابل زهيد المال، ووجد عزاءه في صومعة الجسد حيث

التقديس للجسد الإنساني، والارتقاء به عن المهانة والابتذال، فقد أدرك أحمد أنّ الأجساد هي أوعية الروح، ولا يجوز لعابث أن يسكب ما في تلك الأوعية أو أن يدنّسها بشهوته المحرّمة.

صومعة الحرمان

لم يكن محروماً من مالٍ أو علم أو رفاهية، فقد كان له النّصيب الأكبر منها، فمال والده قد دفع به إلى أفضل الجامعات، كما أمدّه بالراحة والرّضى، وجعله يعرف أرقى المطاعم والأندية الرياضية وأعرق بيوت الأزياء وماركات الأحذية والساعات والنظّارات الشمسية.

وخلقه الرفيع، وطبعه الدمث، وورعه السمح جعلوا الأصدقاء يثقون به، والزميلات في الجامعة يأنسَ له، وآباءَهن من الجيران والأقارب يودعون بناهّنّ أمانة في رقبته، فيحسن حمل أمانته، إذ يصحبهن إلى الجامعة ومنها، ويحفظهنّ كما ينبغي الحفظ أن يكون، لكنّه بقي يشعر بالحرمان من شيء اسمه المشاكسة والحبّ، الحرمان من وضع كفّه في كف جميلة في زقاقٍ مظلم ، أو سرق قبلة في الظلام، ولأنّه عفيف طاهر فقد آثر

أن يركن إلى صومعة الحرمان، ويسكتْ أنّات جسده بالرياضة الشاقة، لعلّها تخنق شهواته المتفلّتة.

صومعة الفضيلة

جاء من أرض الماء والخصب وشروق الشمس والمسَلاّت الطاعنة في خاصرة التاريخ إلى جزيرة النفط واللؤلؤ والأمنيات، حاول أن يبحث عن عمل يناسب مهاراته أو تخصّصه، فلم يجد، فرضي بالكفاف غنيمة، وعمل زمناً طويلاً قيّماً على تلك المكتبة الكبيرة التي تضجّ بالآف العناوين في شتىّ أنواعها المعرفة، وخلا له وجهها، إذ زهد أبناء تلك الجزيرة العائمة في بحر المال بالحضور إليها، في حين كانتْ طِلْبته ومآل وحدته وغربته، فانكفأ يعبّ من علمها دون أن يروى.

فكلمات الحكمة كانتْ معينته الوحيدة في التصدّي لتلك الجارة ذات الملامح الخلاسية والعطور الفرنسية، التي ما انفكتْ تطارده بغنجها ودلالها وخدماتها المعروضة دون احتشام، فيرفض كرمها المزعوم على استحياء واستعجال، ويغلق بابه بإصرار، ويحصّن نفسه بسورة يوسف، ويتشبّث بستائر صومعة الفضيلة التي ركن إليها، وأفاء إلى ظلّها.

صومعة الظلام

دُفع إلى هذه الصومعة دفعاً، لم تكن صومعة للاعتزال والعبادة، بقدر ما كانت صومعة للانتظار المشوب بالخوف، والموت الحاضر بصحبة الغدر والظلم، كان يعرف أنّ هناك أياديا غاشمة سوداء تترصّده بالموت وبرصاصات باردة تشتهي بإثم تذوّق دمه المشحون بالطهر والإيمان وبالتقوى، يستطيع أن يعدّ ألف عدو يهمّه أن ينال من جهاده ومن تكريسه النّفس والمال لخدمة قضية دينه وقضية أمته، كذلك يستطيع أن يعدّ أَلفَ اسم لخائنة أو خائن في نفسه وماله أو أمانته لا يسرّه أن يسمع اسم أحمد في مكان يرصده لصيد أو غنيمة أو سرقة كبيرة.

لكن اسم أحمد كان يتكرّر في كلّ مكان، لذلك فقد كان له أعداء كذلك في كلّ مكان حتّى في بلده حيث كان يُستقبل في مداخلها بالتفتيش والتوقيف والريبة، ولوما اسم والده العسكري الكبير المتقاعد لكان استُقبِل كذلك بالسجن، ولتعفّن بين أسواره الباردة.

كان قادراً على تحمّل كلّ ذلك في سبيل ما يؤمن به، وظلّ وحده يسمع صوت رصاصة دامية تشقّ هدأة صومعته، وتنزلق في زلق هوائها، وتستقر في جسده، وترديه قتيلاً هو وأحلامه

وجهاده، وما كان ليبالي بذلك، إذ كان يبقن أنْ لا عيش إلا عيش الآخرة، ويتحصّن بقول ابن تيمية: "أنا جَنتي في صدري، وسجني خلوة، ونفي سياحة، وقتلي شهادة، فما يفعل بي أعدائي؟".

صومعتهم

كثيرون هم البشر الذين عاشوا وماتوا أسرى صومعة أنانيتهم، بعد أن تنسّكوا في محراب ذواتهم الفانية، أمّا هو فكانوا هم صومعته، حنانه وكرم نفسه وجود يديه امتدّتْ أغصاناً حانية طوّقتْ دوحة عائلته، كان الملاذ والمعين للأب والأم والأخ والأخت والأعمام والأخوال ولذراريهم، أغدق عليهم بعنايته وبماله، فأغدقوا عليه بحبهم وبولائهم اللذين لا يملكون غيرهما، جعل من حاجاتهم معبده، ومن جسده ووقته قرباناً لهم، ورفع سقف صومعته على أكتاف عظيم حبّهم له، واعتكف في صومعتهم.

(٢)

سِفْر المتعة: "النّاسك الجديد"

لم تعد الرياضة قادرةً على امتصاص دفق شهوته،وخشي أن

تتقوّض أركان صومعته أمام غنج جارته الغانية، وتحت ثقل جسده المحموم بالشّباب وبالرغبة، بحث بأناة وصبر عن الحلّ الناجع لمعضلته الحمراء، ووجد الحلّ في استقدام ناسك آخر إلى صومعته.

انتصب أمام والده المزيج المدهش من الصرامة والحنان، وقال له: "لقد قرّرت أن أتزوج". ابتسم الأب دون إرادة منه، وندتْ منه نظرة دهشة، وقال بصوتٍ مشحونٍ بالضحك: "ولكنّك لا تزال شاباً يافعاً، ولا يناسبك الزواج". استجمع أحمد وافر شجاعته، وقال: "بل إنّ الوقت قد آن". وصمتَ فصمتَ والده أيضاً، فلمح في صمته استسلاماً لرغبته بالزواج من تلك الطفلة المرأة، التي بالكاد بلغتْ، فخطبها من والدها الداعية دون أن يراها؛ لما سمع عن خلقها وعن حفظها للقرآن الكريم نزولاً على وصية الرسول – عليه الصلاة والسلام – بالزواج من ذات الدين، ولذلك فقد طلبها للزواج من والدها دون أن يراها طمعاً في دينها، وإن كان يأمل أن تكون بمثل جمال قسمات والدها، وبمثل بشرته الغضّة المفعمة بحمرة شهية وبياض النّور والإيمان والسماحة.

وزفّ إلى عروسته الطفلة المؤمنة، وسكنتْ شهوته في جسدها الصغير، فكان عبداً لها، وكانتْ أَمَةً صالحة له، إذ عرف

المتعة معها، وعرفتْ عالم الرجل معه، فنعما بعالمهما الجديد، وقرّا عيناً بصومعتهما الصغيرة التي تضجّ بالتقوى والودّ والرغبة وبأطفال جُبلوا على شاكلة وسامة والدهم، وطهر أمّهم.

(٣)

سِفْر الرحيل الأكبر: "الشّرخ"

راهن على صلابة جدران صومعته منذ أن حلّت زوجته الطفلة ناسكاً دائماً فيها، وما كان ليصدّق أنّ جدرانها ستتداعى وتسقط بسبب ذلك الشّرخ المدمر الذي قسم تماسك جدرانها، وهوى بسقفها، وعرّى إرادته، وهزم معتقداته ومبادئه أمام أوّل دفقة ضحكات تنــزّتْ من صوتها المترع أنوثة وطفولة، شقاوة وبراءة، رغبة وإحجاماً، بلاغةً وعِيّاً، عرفها كلمات مخطوطة، قبل أن يعرفها امرأة، قرأ اتفاقاً خطاباً أرسلته إليه منذ زمن، فأسرته كلماتها، وبحث عنها، فوجدها تنتظره هو بالذات.

لا يستطيع أن يحدّد بمقدار الزمن الذي يعرفه البشر مدّة عشقه لها، فذلك أمر يحتاج إلى زمن أفلاك ومجرّات ومتعٍ شمسية خالدة لا إلى زمن أرضي فانٍ، لكنّه متأكد من أنّه بات سعيداً بعريّه بين يديها ، فقد كانتْ هي بغيته التي ما كان يعرف

بأنّها يطلبها منذ أنْ خُلق، كانت امرأة بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، كان يكفي أن يلفظ اسمها حتى تتجسّد أمامه امرأة بجسد مغرٍ، وروحٍ متوثّبة إليه، وأنفاس تقطع نياط تحمّله الواهي.

باتَ يراها في عيون كلّ النساء، ويطاردها في الأماكن والهدايا، متعته الجديدة كانت في التوقّف في متاجر الزهور والهدايا، وفي البحث عن هديةٍ تسعدها بأيّ طريقة، كان يجد في نفسه حناناً عجيباً على امرأته ذات الأطياف الساحرة التي تبكي بحرارة كطفلة مشاكسة إذا أرسل لها بهدية لم تعجبها، وتضحك باستغراق إذا أسعدته زهرة أهدتها له مع نسائم الصباح.

المرأة الحلم داهمتْ نفسه كسيل في وادٍ، فما استطاع لها دفعاً أو منها اعتصاماً، فاستسلم لها طائعاً راضياً، وكادتْ نفسه أن تهلك شوقاً إليها وعشقاً لها لولا تمسكه بالحياة أملاً في المزيد من إسعادها، وإن كانت امرأة تختلف عن زوجته النّاسكة التي تحفظ القرآن، في حين إنّ امرأته المعشوقة متوجّة على عرش الكلمات، لاهية عابثة في ملهى شبابها وجمالها وأمنياتها التي لا تعرف نهاية، لكنّه يحبّها، وكفى بالحبّ سبباً ونسباً يجعله يلحّ على الاتصال بها ليل نهار، ويسمّيها حبيبةً، إذا كان يباعد بينهما بحر ووادٍ وصحراء وسوق للعبيد واللؤلؤ والمرجان.

(٤)

سِفْر القيامة: "احتمالات"

لا يستطيع أحدٌ مهما عظم مبلغ علمه أن يجزم بمصير عاشق كان يوماً ناسك صومعة، ومصير عاشقة كانت متوّجة على عرش الكلمات؛ فعرش الصومعة وعرش الكلمات كلاهما وهم، والمتوّج بهما عاري الرأس، ولكن هناك متسعٌ لكلّ الاحتمالات في سِفْر القيامة؛ حيث اللامحدود هو القانون السائد.

- الاحتمال الأوّل: لم يستطع أحمد أن يجشّم نفسه مزيداً من اللوعة والتنائي والفراق، حزم نفسه، وغادر أطلال صومعته لا يلوي على شيء، وحلّق إليها بعقابٍ آلي، فوجدها في المطار في استقباله بحضرة طاقة زهور متوثّبة إلى اللقاء.

- الاحتمال الثاني: كانت الحاضر المنتظر مع أوّل زخّات المطر، انتظرها بشوق، ثم وسّدها حضنه، وحملها حيث مخدعها، وأغلق الباب، واختلى بها لألف سنة ضوئية، واحترق معها وبها حدّ التلاشي، حضنها عارية أياماً وأياماً وأياماً، وأروى عطشه، فتوقفتْ خيول شهوته البريّة عن الصهيل، فخلدا إلى النّوم والراحة.

كان منظرها جميلاً وهي نائمة، لكن رفيف طائر الخطيئة

حطّ بكآبته على قسماتها النائمة، شعر بحقد دفين عليها، وتمنّى لو أنّها لم تكن، ولو أنّ صومعته لم تتحطّم، أمسك بمخدّة كان يتكئ عليها، وأخمد بها أنفاس حبيبته إلى الأبد.

- الاحتمال الثالث: صمّمت على أن تزور بيته حيث الزوجة والأبناء، فقد كانت في شوقٍ إلى ضمّ كلّ أجزاء حبيبها، لا سيما الأجزاء الحميمة التي تُسمّى أبناء. كانوا خمستهم في استقبالها، وكانتْ غريمتها الزوجة مضيفة كريمة إذ هيّأت لها مخدعاً للراحة، وأضنتْ نفسها بتحضير ألذ أطباق الطعام على شرف زيارتها.

جلستْ في حجرة الاستقبال، وجلس حبيبها أحمد قبالتها، في حين تكوّمت زوجته والأبناء حوله، واستقر أصغر أبنائه في حضنه يداعبُ لحيته التي تحاصر ذقنه منذ زمن طويل. كانوا جميعاً لوحة فسيفسائية دافئة اسمها أسرة هانئة، أمّا هي فكانتْ نغمةً نشازاً في مقطوعة عذبة، غزاها خجل عملاق يهمزُ إنسانيتها بشدّة، استعبرتْ رغماً عنها، ادّعتْ المرض، وغادرت البيت دون أن تأكل من طعامه، واختفتْ إلى الأبد.

- الاحتمال الرابع: رغم كلّ الأسوار والحواجز تزوّج أحمد وجلالة أنوثتها، ونعما بالعيش في صومعة شفافة لها أطياف

قزحية، اسمها العشق، هجرتْ هي الكلمات والدنيا، وانبرت تتعبّدْ في صومعة عشقهما، أمّا هو فلم يهجر قيمه ومبادئه التي آمن بها، واستمرّ يدافع عن دينه وأمته، وينشر أفكار العدل والحرية والشورى والمساواة والجهاد.

حملتْ ببذرة عشقهما، وفي ليلة صافية تماماً كليلة لقائهما وضعتْ طفلهما الأوّل الذي أسمته حمزة، كما أراد أحمد أن يسمّيه. ولكنّه لم يكن موجوداً ليتلقّاه بيديه، إذ تلقّت الأرض جسده الذي أردته رصاصة من يد سوداء مجهولة وهو يتلو أذكار الصباح خارجاً من صلاة الفجر.

– الاحتمال الخامس: تزوّج أحمد من حبيبته ربّة الكلمات، ودرجا على طريق عُبّد بالكثير من القلوب الكسيرة التي أحبّته، وبالأُمنيات المهجورة التي تخلّتْ عنها من أجله، ونهلا من زلال العشق، وركنا إلى الأبد إلى صومعة عشقهما، وأغلقا الباب خلفهما، وقذفا بالمفتاح نحو العدم، وأغلقا النوافذ التي كان تتنـــزّى منها أصواتٌ غير واضح، البعض قال إنّها أصوات التلاقي والعشق والاتحاد، في حين أكّد الكثير أنّها أصوات السُّباب واللعن للحظة التي جمعتهما معاً.

(٥)

سِفْر الغفران: "هواجس الصومعة"

استيقظ أحمد كعادته منذ أشهر مفزوعاً من كابوس يلازمه، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، اعتدل في فراشه، ووسّد جسده إلى حضن زوجته التي ضمّته بحنان، ومسحتْ عن جبينه وافر عرقه، وقبّلته وهي تلقمه كأس ماء، لعلّه يفضُّ فزعه عنه، وقالتْ له: "أهو ذلك الكابوس مرّة أخرى". هزّ رأسه قائلاً: "هو ذاته".

صمتتْ وصمتْ، وحار في تلك المرأة الكابوس التي تطارد أحلامه، ويكاد يشعر بأنّها حقيقة، فهي تلمس وجدانه، وتهزّ قلبه، وتملؤه عشقاً لها، وتسقط صومعته كسفاً على رأسه. شكر الله على أنّها كابوس لا حقيقة، وإن عجب أشدّ العجب من تلك القبلة العجيبة التي تلازم باطن كف يده، وتحمل رائحة عطرها المفضّل.

المجاعة

"يحدث كلّ شيء في زمن المجاعة".

استخدم لاستكمال تمثاله الصخري الشّعر الآدمي والأظافر البشرية وبقايا الملابس المهترئة الباقي الوحيد بعد الموت من أولئك الذين سقطوا في قبضة الموت بعد هذه المجاعة الشرسة، التي طرقتْ بيوت الفقراء والمعدمين، وعاثتْ تحطيماً في أجسادهم، وقعدتْ بهم دون الهرب أو الاستغاثة أو الثورة عليها، وأكلتْ من أجسادهم حتى بشمتْ، وظلّوا جائعين، بأجسادٍ ذات جلد تهدّل وتقضّب على عظام وهنة بعد أن ذاب دهنهم.

كان نحّاتاً موهوباً في زمن الضّنك والفقر، ولكنّه الآن ليس أكثر من حفّار قبور أو حانوتي قاتم يحترف تشيع الموتى، ويُتقن إهالة التراب على الأجساد التي اقتاتها الجوع، ويستثمر الباقي القليل مما لن يمانع الموتى بسلبهم إيّاه في إكمال تمثاله الصخري، الذي قدّه من الصخر منذ زمن، وأضنى ذهنه تفكيراً وتدبّراً في أيّ الأشكال سينحَتْ منه، فكرّ في أن ينحته على شكل جواد السلطان، لكنّه تراجع عن الفكرة، إذ إنّ السلطان يحبّ الخيل

البريّة لا الصخرية، وفي مرة أخرى فكّر بأن ينحته على شكل حسناء ممشوقة القوام، لكنّ الحرمان الذي تحرّك في داخله أورثه غصّة خنقتْ أنامله، فمنعته من أن ينحته كما يحبّ، وآل قراره إلى أن ينحته على شكل طفل صغير يستجدي المارّة بدموع صخرية خلاّبة، وخمّن أنّه سيجني الكثير من المال من هذا التمثال الحزين؛ إذ إنّ الأغبياء يسعدون باقتناء فنون الحزن، ويكمّلون بها رفيع أثاثهم ونادر ممتلكاتهم، ولا عجب في ذلك، فالفقر بالمجّان، والفقراء هم من يبدعون الفنون، في حين إنّ الأغنياء هم من يستمتعون بها.

لكنّ المجاعة المفترسة جعلته يتراجع عن تمثاله الصبي المستجدي، وشغلته بالموت وبالموتى، فقد داهمتْ المجاعة المكان على غير غرّة، إذ كان من المتوقّع أن الأمور ستزداد سوءاً ما دام الوالي يضيق الخناق على المواطنين، ويرهقهم بالضرائب المضنية، ويشاركهم حتى في سعاداتهم وفي لحظات الجماع اللذيذة، في حين إنّ السلطان يمارس رياضاته المفضّلة مثل ركوب جواري الفتنة، ومطاردة الشُّهب في المجرّات البعيدة.

أمّا الشباب من الرعية فقد كانوا نذوراً وقرابين لحروب يعزّ أن تُحصى لكثرتها تشتعل في بلاد غريبة، ولأسباب لا تعني

أمّهاهم، ولا تستفزّ نخوهم، وإن كانت أسباباً كافية لكي يحتكر التجّار والمرابون السلع والأغذية، ويقصرونها على أصحاب الدراهم الذهبية، ويبقى الهواء الموجود المجاني الوحيد ملاذاً للبطون الفارغة.

المجاعة كانتْ أقوى من أن تهزمها المدّخرات القليلة والمؤن القديمة والأعمال ذات الأجور المتدنية، والحدود الصحراوية التي تحنق البلاد أشرس من أن يقطعها الجياع فارين لائذين بالعدم مما هم فيه، لذا فقد استكان الجميع أمام الجوع، وتراجعوا أمام الحِرَاب ذات الأنصال اللامعة إثر تتبعّهم لروائح موائد الأغنياء والمترفين، فأحكم الجوع قبضته المهترئة على الجياع، ومحقهم دون رحمة أو نظرة عطف.

المشهد الرهيب هو من احتلّ قريحة النحّات، وأملى على طرقات إزميله الصغير أن ينحتَ تمثالاً كبيراً على شكل مشهد موت عجيب، إذ إنّ الموت عملاق أسود يلوك أجساداً غضّة، وتتترّى من بين قبضيته أشلاءٌ وأعضاءٌ شبه مهروسة، وتحت قدميه تجثو غربان سمينة تلتهم بشهوة ما يسقط من بين يديه، ولكي يكون التمثال أكثر صدقاً واستحضاراً لهيئة الموت البغيضة فقد استعان النحّات الملهم بشعر بعض الموتى ، وبأظافرهم

وبملابسهم، وثبّتها بين يدي التمثال الموت، فكان التمثال حقيقة مجسّدة للموت الذي يصهر المستضعفين دون رحمة.

المجاعة والموت الرهيب وأنّات المنكودين لم تمنع المترفين من أن يستمتعوا بما تجود به قرائح الملهمين الجياع، وأيدي الفنّانين الفقراء، ديوان الثقافة أقام معرضاً تسجيلياً للمجاعة، شارك به الفنانون الجائعون من كلّ البلاد، وفي قلبه انتصب تمثال المجاعة الموت الذي حصد الكثير من الجوائز والصور والمقابلات التلفزيونية والصحفية.

اقتربت تلك الإعلاميّة الثريّة المترفة من النحّات، وسألته بفضول ضاربة صفحاً عن حذائه المهترئ الذي تتفلّت منه أصابع قميئة متسخة، وقالتْ له: "أأنت من صنعتَ هذا التمثال؟" ابتسم النّحات ابتسامةً كسيرة ساخرة، وقال لها بلا أدنى اهتمام: "بل أنتم!!!"

السَّجان

ولعه الشديد بحمل المفاتيح، وبإغلاق الأبواب كان السّبب في أن يخسر عمله الرشيد الذي سعى إليه طويلاً، وبذل من أجل الوصول إليه النفيس والرخيص. يهصره غيظٌ عظيمٌ، وتهاجمه تباريح الحسد والحقد كلما تذكّر أنّ ذلك الرجل المائع ذا الآراء الديمقراطية وحامل لواء الشورى يجلس الآن مكانه، ويغور في وافر جلد كرسيه المنجّد الماجد بعد أن ترك الحبل على الغارب، وفتح الأبواب الموصدة، وألقى بمفاتيحه الحبيبة في مكان مظلم مجهول لتصدأ، وتتآكل ناسيةً منسيّةً.

قِيل له إنّ قوى الديمقراطية وإرادة الشّعب المثقّف الواعي هي من أجبرتْ دولته على إقصائه عن وظيفته الحبيبة، بحجة أنّه يقمع الحريّات، ويعامل الناس بمنطق الأنعام السائمة الضالة التي لا تجيد الاهتداء إلى طريق، وعليه أن يقفل الباب عليها كي تكنّ في مكان بعينه ، وقيل له كذلك إنّ الجميع بات ينعى عليه عشقه لبابه الأصم ومفاتيحه الخرساء ، وما عاد لدولته طاقة

بمواجهة غضب الشّعب، لذا كان عليه أن يفتح الأبواب، ويخفي المفاتيح ولو إلى حين. لكنّه على الرغم من ذلك يكاد يجزم بأنّ دولته قد أقصاه عن عمله خوفاً من سلطانه الناشئ الوليد الذي بات يظلّله بغمامة سوداء، وقضية غضب الشّعب المثقّف الواعي ما هي إلا حجة منتقاة وافقتْ هوى دولته.

وهو متأكّد كذلك من أنّ قلق دولته من نفسه المظلمة ومن مكائده القاتمة هو ما منعه من عزله، وجعله يكتفي بانتدابه لعمل آخر في جهازه الأمني السابق. كان عملاً أصغر من طموحاته، ودون مقامه، وإنْ كان شبهه من عمله الأوّل هو عزاؤه الوحيد فيه. فقد عُيّن سجّاناً على ذلك المعارض العتيد لكلّ نظام حازم خيّر، إذ سرعان ما يدعوه بالمستبدّ، ويثوّر الناس عليه، ومآل معارضته الدائمة كان هذا السّجن المعتم المنقور في جوف الصخر، والمأسور للظلام دون ضوء الشمس.

أسعده للغاية أن يربض على صدر ذلك المشاغب اللئيم، وأن يشهد عمره يصطلي بنار القيد، وكي يمعن في تعذيبه، والتضييق عليه، فقد التزم بعدم الكلام معه لأيّ سبب كان، كذلك عكف نفسه على اتخاذ مكانٍ ثابت يراقبه منه حتى في لحظة تغوّطه وتبرّزه واحتلامه كي يمنعه من أيّ سعادة بخلوة أو خصوصية، ثم

قلّص إجازاته حتى علّقها، وأطال ساعات دوامه في المكان، حتّى غدا عمله إقامة دائمة في المكان كي يكون العين الشريرة الرقيبة عليه، ومنع أيّ زيارة أو مقابلة صحفية أو كتاب أو صحيفة أو خبر طائر من هنا وهناك أن يحطّ في زنزانة المشاغب.

وفرح إذ رأى المشاغب يذوي حزناً وقهراً، وبات يصعب عليه أن يجزم إن كان المشاغب ميتاً أم يعاني من أزمة نفسية حادة تمنعه من الأكل أو الشرب أو التبرّز أو الحركة أو حتى الكلام. وما بالى بذلك، إذ أسعده أن يُحكم قبضته على عنق المشاغب، وأن يمارس وافر متعته المتمثّلة في إقفال الأبواب، وحمل المفاتيح، وخنق خَلْق الله خلف أبواب روحه المؤصدة، التي منعته من أن يفهم معنى تلك النظرة الحانية التي يراها في عيني المشاغب منذ أكثر من عشرين سنة قطعاها معزولين في هذا السجن الذي نسيه النسيان، وما كان له أن يعرف أن المشاغب يرثي لحال سجّانه المسجون معه دون أن يدري، إذ كان الفارق بينهما أنّ أحدهما مسجون في داخل الزنزانة، والآخر خارج الزنزانة، والفاصل بينهما مفتاح حديدي صدأ يبات منذ عشرين سنة في كفّ السجّان الذي وهن عظمه وما وهن لؤمه.

حكاية لكلّ الحكايات

(١)

الحكاية الأم

لا يستطيع الادعاء بأنّه يحبّها، ولذلك سيقتل أيّ رجلٌ يقترب منها، كما فعل أخوه قابيل الذي قتل أخاه هابيل ليخلو له قلب أختهم راحيل، ولن يخدع نفسه، فيقول إنّ أخته جميلة إلى حدٍ لا يقاوم، ولن يزعم كذلك أنّه يريد أن يصطفيها لنفسه لأنّها أثيرة أبويه، أو صاحبة مال أو موهبة نادرة، لكنّه يريد أن يحصل عليها كي يكسر أنفها الأفطس الذي يشبه أنفه تماماً، ولا عجب فهي توأمه، ولكنّه يمقت أنفها المتعالي الذي كان يزحم عليهما المكان في رحم أمّه حوّاء، وهو الآن معنيٌ بذّل كبريائه، ولو كبّده ذلك غضب الربّ، وفطر قلبي والديه آدم وحواء من جديد بعد مقتل ابنهما هابيل منذ دهور طويلة.

يتربّص بأخته ذات الأنف المتعالي وعزّة النّفس المقيتة، يحيك بمهارة خيوط المؤامرة، ينقضّ عليها في سكون الليل وهي

تسعى لقضاء حاجة في الخلاء حيث الخفافيش والعراء واللاأحد، يستعدي عليها الأخوة الجاهلين، فيحزّ رقبتها، ويهشّم أنفها الأبيّ بحجرٍ باشتهاء واضح، وينعاها لوالديه، ويطعم جسدها للضواري والكواسر، فهي قد أهدرتْ شرفها وِفْق زعمه، فاستحقّتْ الموت بعرف طقوس الدم المتوارثة.

(٢)

الحكاية النموذج

١:١: احتاج إلى مبلغٍ من المال، فسطا للمرة الألف بقوة الذراع ودم الأخوة المزعوم على مالها، وعندما قرّرتْ أن ترفض استنزافه المقيت لها، وقالتْ لا، عاجلها بطعنة سكين بقرتْ بطنها، واخترقتْ أشلاءها، فانزلق جنيها أرضاً بين قدميها مطعوناً بطعنة أمّه التي دفعتْ حياتها؛ لأنّها قالتْ لأخيها الظالم: "لا"، ولأنّها امرأة وصمتْ العائلة بوصمة العار المزعومة، وأهدرتْ شرفها، كما قال خاله في محاضر التحقيق الجنائي، فصدّقه الناس والقانون، وكذّبوا الجنين المطعون.

١:٢: أراد أن يضمّ إرثها إلى إرثه، فرفضتْ بقوةٍ وإصرارٍ، فكسر لها ضلعاً، فنبتْ لها ضلعان، منعها الطعام، فأُصيب هو

بفقر الدم الحاد، رزمها متاعاً، وقرّر أن يبيعها لصديق لا يملك إلا ذراعاً عاتية، وعضواً ذكرياً متحفزّاً، وعقلاً صغيراً لا يُثقل عليه، فرفضتْ ذلك، وهربتْ مع الرجل الذي تحبّه، وتزوّجته، ومن جديد طالبتْ بإرثها، فطلبها الأخ صاحب الدم الحار والعضلات المفتولة والمروءة المتعلقّة، وعدا على بيتها، وحزّ عنقها، وتبجّح قائلاً: إنّه محا عارها الذي لا يُمحى إلا بالدم الذي غلى في مرجل غضبه باتقاد متوحش عندما أُسقط في يديه، وعلم أنّ القاتل لا يرث من قتل.

٣:١ : كم حاول أن يقرن كلمة إلى أخرى، ولكنّه فشل في ذلك المرّة تلو الأخرى، في حين كانتْ هي عرّابة الكلمات التي تغزلها بإتقان ويسر على مغزلها السحري، كتب كثيراً، وكتبتْ أكثر، طار نجمها، وحطّ نجمه من غير علٍ، عرفها النّاس، وجهلته الحروف، أزبد وأرعد وزمجر، ولكن ما طاوعته الكلمات، كتبتْ عن حرمانها، فدبّتْ الحياة في كلماتها، وغدتْ أشباح علاقات محتملة مع رجال قد كانوا، قرأ ما كتبتْ، فوجد مبتغاه فيما قرأ، حاكمها بمنطق الخيال، لا بجرم الحقيقة، ذنّبها بألف حالة عشق، وألقى القبض عليها في حضن ألف رجل، ثم حاكمها على عجل، ونطق بحكمه المنتقم من سعادتها الوهمية ، ومن

تفوّقها عليه هو الأخ الرجل الرفيع القدر في أسرته وفي قبيلته، وهي الأخت المرأة الأقل شأناً.

تسلّل إلى غرفتها، وذبحها، فأطلقتْ ثغاءً مخيفاً هزّ المكان، وأيقظ رجالها أبطال قصصها ورواياتها، داسهم جميعاً، ومزّق كلّ ما كتبتْ انتقاماً من تفوّقها عليه، وسخْطاً على مَلَكَة الكتابة التي تملكها، في حين حُرم هو منها، وبالطبع غسل بذبح أخته النعجة ثوب شرفه المزعوم التي لطّخته أخته الآثمة الخاطئة التي فرّطتْ بشرفها المصان.

٤ : ١ : امرأة هي وَفق كلّ معايير الذكورة والمجتمع الأبوي، هادئة، مطيعة، لا تحتجّ، لا تبكي، لا تطلب، تجيد فنون الطبخ والحياكة، وتعد بأن تقدّم نفسها شهية له في كلّ ليلة بعد طبق الحلوى المفضّل عنده، وتوافق على الزواج به؛ لأنّها دجاجة أو عنزة بيتية مطيعة، وتذهب زوجةً مع الرجل الذي يريده والدها وأخوها.

لكنّ الزوج رأى في عينيها أشباح فضيحة، وابتسامة هازئة تندّتْ من صمتها المخيف، ولمح في غضّ بصرها قرفاً من عجزه، وتلويحاً بكشف ستره، ومعرفة سبب فشله مع تلك الأجنبية الشقراء التي طلّقته سريعاً، وأخذتْ شطر ما يملك، وجلّ

كرامته.

كان عليه أن يسكتها إلى الأبد، حاول أن يسكتها بالإشباع، فأعياه عجزه، حاول ذلك مراراً ولأيام كثيرة، لكن دون فائدة، غاضه صمتها، واستفزّ جسدها المثير رجولته الراكدة المتخاذلة، فانقضّ عليها في لحظة غضب، وقتلها، ومزّق عذريتها ورقبتها بسكينه؛ لأنّه قرّر أنّها قد وهبتْ نفسها لغيره، ولا أحد يستطيع أن يكذّبه، فهو الزوج الربّ، وإذا قال صدق، وما لأهلها إلا أن يأخذوا جسدها المكفّن بالعار، ويدفنوه بعيداً عن الزوج الفحل الشهم!!! فالذنب كلّه كان ذنبها، فهي من اختارتْ زوجاً عاجزاً للغاية.

١:٥: اعتاد على أن يروي عطشه عبر تلك اللحظات المشحونة بالمتعة المسروقة من فيلم إباحي أو مجلة تعرٍ، يستجمع كلّ فحولته المزعومة، ويهبها دفعة واحدة لامرأة متخيّلة، فتخمد رغبته المحمومة إلى حين، لكن جسده العاتي أراد أن يبتلع امرأة حقيقة في هذه اللحظة، لم يجد أمامه إلا ابنة أخيه التي ودّعتْ الطفولة للتو، وانتضتْ ثديين كسيفين ، وملامح أنثوية قادمة ، تفرّسها برغبة، وانقضّ عليها، فامتصّ أنوثتها حتى روي ، ونسي جريمته، لكن الجنين الذي حملته سفاحاً صرخ في أحشاء

أمّه الطفلة منبهاً لوجوده.

اجتمعتْ الأسرة، واهتزّتْ الشوارب الغاضبة، وأغلقتْ الأبواب والنوافذ والستائر! وحُجبت النساء، وكانتْ المحكمة؛ ولأنّها الأضعف، فقد كان الحكم ضدها، إذ ليس من العقل أن يضحّى بالرجل الجائر، وتترك المرأة الطفلة الضحية؟ فاقتادوها إلى العراء حيث قُتلتْ بدمٍ باردٍ جزاءً على فعلتها الشائنة، إذ هي دون شك من أغرتْ عمها البريء كحملٍ وديع بالاعتداء عليها، وقد أخذتْ جزاءها وفاقاً، وأراحتْ وارتاحتْ.

٦:١: طالبتْ أمّها طويلاً بأن تُعالج ابنتها من داء السير ليلاً، لكنّ أحداً لم يعرها أُذن اهتمام، فلا أحد عنده وقت لأخت تسير ليلاً، لكن الجميع يملكون أيدي موت عندما يتعلّق الأمر بإعدام أختٍ وُجدتْ نائمة على الأرض بالقرب من غرفة جار أعزب يسكن سطح العمارة المجاورة بعد أن أعياها السير وهي نائمة.

حزموها بسرعةٍ وبقرفٍ، وألقوا بها من شفا جرف، فخرّت أرضاً ميتة، فغسلتْ بذلك شرفاً ادّعى الأخوة أنّه تلوث هدراً، وشفيتْ تماماً من داء السير ليلاً وهي نائمة.

٧:١: جلس إلى مقعده الفاخر على منصة مرتفعة بعد أن لبس وقاره وحزمه وعدله المزعوم، كان عليه أن ينطق بكلمته

الحكم الفيصل في قضية أولئك السادة اللصوص الذين تاجروا بأعراض المستضعفات والمغلوبات على أمرهنّ من النساء لا سيما تلك الفتاة الغِرّ التي هتكوا عرضها عبر مؤامرة قذرة، كذلك كان عليه أن يقول كلمته العادلة في قضية ذلك الأخ الهمام الذي انتقم لهدر عرض أخته على يد سبعة رجال عتاة، تكاثروا عليها، فغلبوها على أمرها بأن قتلها، وتركهم يعيثون فساداً وعهراً في الأرض.

تنحنح القاضي بشكل مصطنع، واستجمع نفسه، وشدّ عباءة القضاء على صدره، إذ كان يشعر بالبرد، وحكم ببراءة الأخ الذي انتقم لشرفه، وقتل الأخت الضحية، وترك الذئاب تسعد بصيدها الثمين، وتضجع في الشمس ريّانة شبعانة إلى حين وقعتْ في يد القضاء، الذي بدا رحيماً معهم مقارنة بمحكمة الأخ المنتقم لشرفه المهدور على يد ذئاب سبعة من أخته ليلى ذات الرداء الأحمر، والبراءة الشفافة، والحكاية الدامية.

٨:١ : في عروق كلّ منهما يجري دم أحمر قانٍ يحمل كبراً وغيرة ورفضاً للخيانة، فإن ضجّ في شرايينه سُمّي أخا شرفٍ، وإن ضج في سويداء قلبها سُمّيت قاتلة آثمة، وما كانتْ لتبالي بذلك، فقد ألفته في حضن صديقتها المقرّبة، يسافدها الغرام،

فقتلتهما في لحظة غضب، وانتصرتْ لنفسها، وانتظرتْ أن ينتصر لها القضاء، إذ كانت تدافع عن شرفها كذلك، إلا أنّ القاضي الرجل لا يستطيع أن يرى الشرف إلا في قطعة لحم بين فخذي امرأة، وخلاف ذلك فهو جريمة، ولذلك فقد أرسلها سريعاً بتذكرة إعدام مستعجلة إلى العالم الآخر؛ لأنّها قاتلة آثمة.

(٣)

الحكاية المأساة

تتشابه تفاصيل كلّ الحكايات المأساة، إذ تعلّقت بشرف زُعم أنّه هدر على يدي امرأة خاطئة، إذ تقول الحكاية دائماً(*): "...وهكذا خسرتْ شرفها... والشرف المهدور لا يعوّضه إلا الدم المسفوك... فتسلّل ذكُرُ ما اسمه... في ليلة معتمة... وقتلها... فغسل بدمائها شرفه المطلّخ بالعار. وسلّم نفسه للقضاء، الذي كان به رحيماً، ولموقفه متفهّماً، فحكم عليه بشهرٍ من العمل الشاق، وبغرامة مقدارها قرشٌ لا غير... فأرواح المخطئات لا تساوي الكثير...".

(*) التفاصيل الصغيرة لا تساوي شيئاً إذا تشابهتْ النهايات.

يوميات حروف

الهمزة

إبداعاتها القصّصية المزعومة لم تحظَ إلا بإعجابها، أحد النقّاد تجرّأ، وقال لها على مضض وحذر: "عليك أن تبدعي شكلاً قصّصياً جديداً، وأن ترفدي المضمون بالعمق والفكرة".

فكّرت طويلاً بالملاحظة التي أمِلتْ أن تكون مفتاح انغلاق ما تكتب على تقبّل القرّاء، وإعجاب النقّاد، لم تفلح في أن تأتي بجديد في ما يتعلّق بمضمون قصصها، واكتفتْ بأن أقدمتْ على استحداث بدعة طريفة في قصصها، إذ جعلتْ الغلاف في نصف المجموعة القصّصية، التي تركتْ صفحاتها بيضاء دون أن تخطّ فيها كلمة واحدة، وانتظرتْ أن يشيد النقّاد والقرّاء والصحفيون بها، فقد خالتْ أنها غدتْ رائدة تحطيم الشكل القصصي، ولكن انتظرها طال...

الباء

بدافع التوسّع والتخلّص من الأغراض الزائدة عن الحاجة التي تضجّ بها الشقة الصغيرة، قام بإخراج سلّة المهملات القديمة من البيت، فعنده سلّة مهملات جديدة بغطاء متحرّك ذاتي، وبدافع الكسل وضعها على باب شقّته، ولم ينحّها عن بابه، ولم يأمر حارس العمارة بإعدامها في مكان ما.

ظنّ الجيران أنّه قد وضعها على باب بيته طلباً للنظافة، وحثّاً لهم كي يلقموها قمامتهم، ولا يلقون بها على السلالم، في ساعات امتلأتْ السلّة القديمة بالقمامة الفضولية، كاد يغضبُ من سلوك جيرانه، وتأمّل بفضول سلّته المطروقة بكثرة هذا النهار، قدّر أنّها أهم مما تخيّل، وأعاد النظر في موضوع إعدامها، ومنحها عفواً خاصاً، وأعادها إلى الشقة، وادّخرها في خزانة الأشياء القديمة.

التاء

تناجي نفسها ليل نهار عبر مرآتها القديمة، تتأمّل ملامحها الرقيقة السامية، وتعجب ممن يرونها دميمة، فهي آية مجسّدة للجمال، تسأل مرآتها بثقةٍ مزهوةٍ: "يا مرآتي، من أجمل امرأة

في العالم؟" تقهقه المرآة الباردة، وتقول بصفاقة: "أنت الأجمل". تحاول أن تصدّقها، ثم تغرب في بكاء عميق؛ لأنّها تكره المرايا الكاذبة وعيون الرجال الفاحصة.

الثاء

ثواني ويكون اللقاء المنتظر، هي المرأة التي انتظر لتعوّضه عن سنين الزواج المجدّبة، وهو الرجل الذي حلمت به ليلملم شتات نفسها التي بعثرها رجل ما في زمن الدخول في التجربة، تعارفا عبر الإنترنت، فتجاذبا، واتفقا على اللقاء، وضربا له موعداً ما، وها قد أزف الميعاد، وجاء بلهفة، ولمّا يحضرا بعد.

جاء هو أوّلاً متهندماً متعطراً، وانتظرها، وطالع الساعة عشرات المرات يستحثّ اللحظات لتهلّ عليه بأفراحه الموعودة، ولم تأتِ، بل فاجأته طليقته بزيارة غير متوقعة، كانتْ هي متهندمة كذلك، تطالع ساعتها بقلق بادٍ، حضورها أربك موعدهما المضروب، غادرا المكان على مضض، وكلٌ منهما يعجب من عدم حضور مَنْ يحبّ، ويحثّ الخطى ليذهب إلى البيت، ويجلس إلى الإنترنت، ويرسل إلى الآخر الذي أخلف موعده معه رسالة يقول بها معاتباً: "ما سبب عدم الحضور؟! انتظرتك طويلاً ، ثم اضطررتْ لمغادرة

المكان بسبب حضور زائر غير متوقّع.

الجيم

جميلة هي جداً، ولا يبالغ إن قال إنّها أجمل من نساء المجلات، وفتيات الإعلانات، وراقصات الملهى الليلي الذي يزوره من وقت إلى آخر، سكنتْ في العمارة المقابلة مع عائلتها منذ أسابيع قليلة، ما كان يظن أنّه سوف يحظى بنظرات إعجابها واهتمامها، لكنّ تحديقها الدائم به جعله يجزم بإعجابها به، فلزم شرفته المطلّة تماماً على غرفة نومها، واحترف لعبة التحديق بها، وبنى آمال عريضات مع جلالة عينيها الساحرتين، وفاته أن يلمح عصاها البيضاء.

الحاء

حملته مسجىً في قبضة يدها الآثمة الملطخة بآخر أنفاسه المزهقة، كان عصفوراً مغرّداً قبل لحظات، وهاهو الآن يغدو جيفة تغادرها حرارة الحياة بسرعة. كانتْ تريد أن يغرّد في يدها القابضة عليه، وشدّتْ على ضلوعه الهشّة لتهبه حنانها القاتل، فخنقته، وقتلته من حيث أرادتْ أن تشعره بمقدار حبّها له.

الخاء

خرّ ميتاً على باب السلطان يحمل كتاباً يستعطفه به كي يتحمّل عنه نفقات علاجه من مرضه العضال الذي ألّم به، وهو فقير لا طاقة له بدفع الدراهم الذهبية. طبيب المشرحة قال إنّ موته لم يكن بسبب مرضه العضال، بل بسبب هدر ماء وجهه على رخام باب السلطان.

الدال

دنا منه، وزاحمه بالمنكبين والركبتين حتى كاد يخلعه من مكانه من أمام باب ديوان العطايا، نظر إليه نظرة من تحت ظلال عمامته الفارهة، وقال له بتقزّز: "يا هذا، ابتعد من هنا، أهذا مقام السؤال؟!"

رمقه الشحّاذ بنظرة ازدراءٍ لئيمةٍ، وقال له باستخفافٍ قاتلٍ: "أو هذا مقام العالم؟!"

الذال

ذنبها الوحيد أنّها تريد أن تدافع عن عرضها وعن أعراض بناتها الصغيران، لطالما ردّتْ أيدي العابثين بحزم وقوة، ولزمتْ

عملها الحقير في مخزن الغلال، ورضيتْ بالسّتر قسمة، لكنّه ما أراد إلاّ ثمينها المصون، ومدّ إليها يده الآثمة، فتحوّلتْ إلى غول بشع بعين واحدة تمتدّ طولياً في وجهها المعلول، وبثدي واحد، وبفم ذي أنياب كاسرة، لاكته حتى حطّمت عظامه، وهرستْ لحمه، وغادرتْ المخزن لا تلوي على شيء.

الراء

رام أن يكون في مأمن ممن يبطشون بالعيون التي ترى، والآذان التي تسمع، والألسنة التي ترفض، فلزم العمى والطرش والخرس، وانتهى في شقٍ صغيرٍ، دسّ نفسه فيه، وسعد بمصير البُزاقة الذي آل إليه.

الزاي

زحم المكان بآلاف المصنّفات والمراجع ونوادر المخطوطات ونفائس الإبداعات والسّير، أمضى حياته في ترتيبها وتصنيفها وتبويبها، وما تسنّى له يوماً أن يقرأ في إحداها، فقد كان خازن أوراق لا عالم.

السين

سيدنا الماء أراد أن يوزّع هباته السنويّة على رعاياه من أهل البحر والبرِّ، فأحدث زوبعة بحريّة مثيرة خمّن أنّها سوف تمتّع أهل الماء، وكثير دهشة أهل البرّ والساحل، فأغرق السواحل، ودمّر الموانئ، وبعثر أسماك البحر وجواهره على الشطآن والمرافئ، ولعن كلّ رعاياه الجافين والمبللين إذ سبّوه، وتطيّروا من زوبعته المثيرة، وما قدّروه حق قدره.

الصاد

صديقتها هي منذ سنين طويلة، تقاسمتا معاً الذكريات وأيام الشّباب وانكسارات الآمال ورأبها، تخاصمتا لسببٍ تافه لا تفلحان في تذكّره مهما بذلتا من جهدٍ لذلك، كانتْ غاضبة وفي حاجة إلى صديقتها الأثيرة للغاية، وفي حاجة إلى أن تبثّها مكنون نفسها، فقد كانتْ صديقة صدوق في زمن الاحتياج والرحيل.

اتصلتْ بها، أثخنتها بقصصها وجراحها، قالتْ لها: "أنا مشتاقة إليك للغاية". وسمعتْ حنون كلامها، تنهدتْ بعمق، ثمّ سبّتها، وصكّت سمّاعة الهاتف في مسمعها إخلاصاً لطقوس المشاحنة والعداء، ونزولاً على نصائح الشيطان، ووسوسات

القلب الخدّاج.

الضاد

ضميرها يؤلمها بقوة، ويعاني من تضخّم ورمي عجيب، إذ يكاد يجتاح أحشاءها، ويقتلع قلبها الذي خانها، وخرج على سلطتها الحديدية موضع فخرها، وأحبّ ذلك الرجل الهادئ كغيمة، الصامت كظلّ، الخامد كبركان، حاولتْ المستحيل كي لا تعشقه، لكنّ كلّ محاولاتها المزعومة فشلتْ تماماً، وهاهي تحطّ إعصاراً على رأس زوجته وأولاده، وتهدّد بتحطيم عرى تماسكهم، ولطيف معشرهم، ولكنّها تحبّه، ولا سلطان لها على قدرها، تفكّر كثيراً بالهروب منه، والتخلّص من آلام ضميرها، وبعد صراع نفسي طويل تقرّر أن تجري لضميرها عملية استئصال؛ إذ إنّه متورّم أكثر مما يجب.

الطاء

طُلب منه أن يقدّم كلمةً في ذكرى يوم نصرهم المؤزّر قبل مليون عام على مجرّة تاهتْ في الكون، وما عاد لها وجود، كان عليه أن يستعرض تاريخ الحروب، ثم يستأنف الحديث عن

حروب النجوم، وصراع المجرّات، ثم يتوقّف ملياً عند مفاخر شعبه، وصغائر عدوّه، ولا ضير في أن يذكر أسماء موتى تلك الحرب العادلة، ويعرّج على أماكن سكناهم، قدّر أن الكلمة ستستغرق على الأقل خمس ساعات يصدح بها أمام جمهور المحتفلين، ولا تثريب عليه في ذلك، فالمناسبة بالغة الأهمية، وهو لم يبذل جهداً كبيراً في تحضير كلمته، إذ استوت في خطوط عريضة في خمس دقائق.

لسبب طارئ أُخبر بأنّ وقت الحفل قد أُختزل إلى ثمنه، وأن عليه أن يجعل كلمته في خمس دقائق، فشرع يعدّ كلمته من جديد، واستغرق ذلك منه خمس ساعات كاملة.

الظاء

"الظبي صغير جداً... لعلّه رضيع أو يبحث عن أمّه" قالت وهي تداعب وجه الظبي المسجّى على الشارع الإسفلتي الحارّ، تحثّه بأطراف أناملها الورديّة على أن يتمرّد على الموت الذي هبط عليه قبل دقائق إبّان اجتيازه للشارع ليصل إلى الجهة الأخرى منه قبل أن تأتي سيارتهم الصحراوية مسرعة، وتصدمه بقوة، وتعفّره بعجاج سرعتها.

كانتْ تتابع عيني السائق الذي كان قبل أيام حبيبها عبر مرآته، وترهف السمع لصمته ولحديث عينيه وهي تقول لخطيبته التي تسند رأسها بوله على كتفه الأيمن، وتستمع باهتمام إلى حكايتها مع ذلك الشاب المجهول الذي قالتْ لها يوماً إنّها واقعةٌ في غرامه: "لقد انتهى كلّ الشيء كان بيننا، لقد هجرني، ليتزوّج من ثريّة مترفة". لكن الانحراف المفاجئ عن جادة الطريق، ودهس ذلك الظبي الصغير منعاها من أن تتابع ذلك التقبضّ في سكون عينيه، نزلوا ثلاثتهم من السيارة مسرعين، وتحلّقوا حول الظبي القتيل، كان ميتاً، وحرارة الروح ما تزال تضطرب في ارتعاشات جفنيه، قالتْ الخطيبة لخطيبها بنبرة لومٍ: "تسرّعك كان السبب في قتل هذا الظبي المسكين".

تنهّدتْ بنفسٍ خافت، وهمستْ في أذن الظبي الميت: "وفي موتي أنا أيضاً".

العين

عليه أن يستجمع قوة خيالية،وأن يستحضر بلاغة مبينة كي يصوغ لهم في كلمات وهّاجة حقيقة مشاعره بدقّة نحو تلك الخادمة الأسيوية الشديدة السمرة،ذات العينين البليدتين، والخصر

النحيل، والأقراط الكثيرة التي تغزو أذنيها الصغيرتين. هو لا يشتهيها، فقد قعد به العجز دون ذلك، ولا يحتاج إلى خادمة بالمعنى الدقيق؛ فزوجته المقعدة المريضة هي من تحتاج إلى خدمتها، ولذلك استقدمها ابنهما البكر، ولا يتوقّع منها أن تمتعه بحديث ممتع عذب، فكلاهما لا يفقه لغة الآخر، لكنّه بحاجة إليها؛ ليتذكّر أنّه ما يزال رجلاً على قيد الحياة، تنعشه مداعبات امرأة، ويُسعده تتبّع أثيرها الأنثوي على أثاث البيت، وجدران الغرف، هو باختصار يريدها كي تتحرك معها أوتار قلبه، فيتأكّد من أنّه ليس مقعداً مع زوجته في كرسي رمادي متحرّك منذ سنين طويلة.

الفاء

فهمه للأمور مختلف عن فهم كثير من البشر لها، وهنا يقع الخلاف بينهم، فهم يسمّونه مجنوناً، وهو يسمّي نفسه عبقرياً، فهو قادر على أن يخلق أسطورته من المستحيل، وقادر على تغير الأمور المحزنة، لتغدو مفرحة مبهجة، وهي قدرة استثنائية، يعجز عنها جلّ البشر التعساء في هذه الأرض.

أعليه أن يقول إنّه لقيط، لا يعرف له أباً ولا أمّاً، وإنّه فقد

قدمه في حرب لعينة لا ناقة له فيها ولا جمل، وأنّه ما ضم امرأة يوماً في حياته ليكون عاقلاً في عرف البشر عُشّاق النّكد؟! ألا يمكن أن لا يُعدّ مجنوناً على الرغم من ادعائه بأنّه ابن إله القمر، وكوكب الزهرة، وأنّ أمّه أسطوريّة العشق والجمال هي من أرسلته عبر نيزكٍ متوهجٍ إلى الأرض كي ينجو من حروب كونية طاحنة، وأنّه خسر قدمه في معركة غير متكافئة مع ديناصور جائع، وأنّ طبيعته السرمدية، وجسده نصف السماوي هما من يحولان دون أن يقيم علاقة مع أيّ امرأة من البشر؟!!

القاف

قامتْ الدنيا على التفاصيل الصغيرة، في حين كانت التفاصيل الكبيرة قائمة وعامة وغير خاصة أو محدّدة، وتخلو من خصوصية أو حميمية، وتمخّضتْ تجربة التفاصيل الكلية عن مأساة كونية خطيرة، إذ عمّ التشابه الأشياء، وتماثلت الموجودات، وتساوت الأمور، وما عاد هناك فرق بين عين وعين أو قلبٍ ووجه، أو وجهٍ وآخر، أو عشق وهيام، اجتمعت التفاصيل الكلية، وقرّرت في لحظة مخاطرة أنّ تلد التفاصيل الصغيرة، لتتمايز الجزئيات، وتجمل الحياة، وتختلف الأشياء، فكانت التفاصيل

الصغيرة التي اشتعلتْ بسببها هروب الدنيا جمعاء، إذ كان الاتفاق على تلك التفاصيل ضرباً من المستحيل.

الكاف

كان من المتوقّع أن يستغرق عزفه ساعات أو حتى أيام كي يستنفذ كلّ آلامه وأشجانه، فلهذه الغاية أهداه أبولو إله الفن والموسيقى هذه القيثارة كي ينسى زوجته المسجونة في دنيا الموت الأسود، لكن حزنه كان أعظم من لحظات تُستنفذ، وطاقة تفنى، شرع يعزف ويعزف ويعزف، فألهى بموسيقاه العذبة البشر عن حروبهم، واستأنس بها كواسر الوحوش، وجمع حوله الحزانى والمنكوبين، ولّما مات بقيت قيثارته تعزف دون توقّف...

اللاّم

لوّن زهراته الجميلات المأسورات في لوحة زيتية بدقة وعناية ، سخر منه الأصدقاء لاهتمامه برسم ماء في إناء الزهرات ، إذ كانتْ جمادات لا حياة فيها ، ولا تحتاج إلى ماء ، لكنّه كان مؤمن بقدرة ريشته على البعث، وبزهراته اللوحة ، التي كبرتْ بمقدار إنشين منذ أسبوع، وتفرّعت منها زهورٌ صغيرةٌ، ونمتْ لها

براعم غضّة.

الميم

موهبته الوحيدة كانتْ القدرة على اختلاق الأعذار، وعلى تأجيل الأعمال، والبراعة في الرثاء للنّفس التي لا حظّ لها، فهو يملك موهبة يخلص لها، ويتعهّدها بالرعاية والاهتمام، لكنّها لا ترفعه كما ينبغي له، ولا تحضّ البنان لتشير إليه بالإعجاب والتقدير، ولا تعلى كعبه سيراً على ديدن المواهب، وكما هو شأنها مع أصحابها، بل هي تحطّ مترلته في نفسه وفي جماعته، وتقعد به دون النجاح والعمل، وتحرمه من لذة التحقيق والانتصار.

النون

نسي أنّه فنان بل إنسان منذ أن بسم له الحظ، وصالحته الدنيا، وانتقل للعيش من غرفة تحت الأرض إلى شقة فارهة في شارع الوزارات، لكنّ الريشة عافته، ولم تبرّ بعهدها له، كذلك هجرته الكلمات غير آسفة على ودّه المنصرم، حاول أن يتأقلم مع حقيقته أنّه ثري سعيد ، لا رساماً وشاعراً منكوداً، لكنّه أخفق

في ذلك، كما أخفق في أن يجد في نفسه دليلاً واحداً على أنّه إنسان يحمل شعوراً ما، ويعرف معنى الألم، وكي يتأكد من حقيقة ذاته قدح شعلة الفرن، وحشر كفّيه فيه، وانطلق يصرخ ويصرخ ويصرخ.

الهاء

هوايتها المفضّلة أن تحرق قلوب البشر، ولا وزر عليها في ذلك ما دام قلبها يحترق كذلك. كان الحبّ والعشق والإخلاص هم هوايتها الأولى، التي كانت تناسب طبعها الرقيق، ونفسها التائقة إلى البذل والنّور والإسعاد.

ثم جاء آكل القلوب، فاشتهى قلبها، وفي سبيل الحصول عليه تفنّن في تقديم عروض بهلوانية مثيرة للحبّ، ولأنّها غرّة فقد صدّقته، ووهبته قلبها، فأكله. ومن يومها غدتْ آكلة قلوب لا تستسيغ ما تأكل منها إلا إذا كان محترقاً حدّ التفحّم، بعد أن تضنيه على نيران الشوق والعشق المزعوم.

هي سعيدة بموهبتها التي تدفعها أحياناً إلى الشره المفرط، ومن ثم إلى التقيؤ لساعات طويلة في مكان مظلم، كان اسمه هي.

الواو

وجيلان هو عيدهم الشعبي المفضّل، يستغرق يوماً وليلة، تُحضّر فيه العصائر الطبيعية اللذيذة، وتُعقد فيه الحلوى في أكياس ملونة برّاقة، ويُقام على شرفه حفل أناشيد وأغاني وأحاجي للأطفال، يُشرف عليه حفنة من المعلمين والمكلّفين بذلك من الوزارة إلى أن تنتهي الليلة الطفولية المرحة.

لكنّ التوجيهات الوطنية الحكيمة لجهة ما اقتضت المزيد من الاهتمام بهذا العيد المهم، وتحويله إلى مناسبة وطنية بل قومية مقدّسة، وفي سبيل ذلك أُنشئتْ وزارة للقيام على تنظيم شؤونه اسمها وزارة وجيلان، كذلك رُصدتْ له ميزانية عملاقة كشفتْ حساب وزارة الحربية، فاضطر وزير الداخلية لتسريح نصف الجيش، ووقف إمدادات الجيوش المحاربة في البقاع المحتلة، وانتهاج سياسة اللين والإرضاء مع كلّ الدول الطامعة بدولته الفتيّة في سبيل استمرار وجيلان.

الياء

ينتظرون الأخبار التي تبثّها وكالات الأنباء من شتى أصقاع المعمورة، يتحلّقون حول جهاز الحاسوب، ويفرغون ملاحظاتهم في أوراق بيضاء، وينطلقون ليقوموا بواجباتهم المقدّسة،

وليضطلعوا بممارسة سلطتهم الرابعة، فيقولون كلمة الحق لا يخشون فيها لومة لائم، ويحملون لواء الصدق أنّى اتجهوا، ويفخرون بأنّهم صحفيون يحرسون أقلامهم الطاهرة.

- الصفحة السياسية: الراقصة ز. ف. ت. تتولّى منصب المساعي الحميدة في الأمم المتحدة.
- الصفحة الدينية: فضيلته يتبّرع لحديقة حيوان تايوانية بنصف أموال الأوقاف المسروقة في فترة حكومته الرشيدة.
- الصفحة الثقافية: تؤكد الفنّانة ك. ك. ك. أنّ حجم ثدييها طبيعي، ولا تنفي احتمال تكبير شفتيها، وتصغير أنفها، وشدّ رقبتها.
- صفحة المنوّعات: صدّق أو لا تصدّق: أكّدت مصادر موثوقة أنّ الشامة التي على وجه المغنية المبدعة س. س. كانت قبل عملية الشدّ في منطقة بطنها.
- صفحة التنمية: قدّمت مؤسسات وطنية قروض ميسّرة للأسر المستورة بعد أن عرّاها الفقر وفضح سترها.
- الصفحة الرياضية: للعام الخامس على التوالي يخفق فريقنا الوطني في تصفيات الوثب الطويل بسبب انكسار الأعناق، وقصر بُعد النظر.

عبودية

"العبودية ليست أغلالاً وأطواقاً من
حديد ونار، بل هي لحظات ضعف
وخنوع واشتهاء لا يُصدّ"(*).

(*) من حِكَم العبد الآبق المجهول النّسب.

(١)

شهبندر التّجار

رصد مئة درهم لأعمال الخير، ومئة درهم لرعاية نشاطات اجتماعية مكرورة، ومئة درهم لشراء قلنسوة يمانية تناسب مقامه الرفيع، إذ كان شهبندر التّجار، وصرّ كفّه بزهو على ألف ألف درهم يدّخرها ليشتري بها جارية ساحرة ما وقعتْ عليها عين بشر، ولا افترعتها شهوة لعضوه العجب المتوثّب دائماً أمام الجمال وغنج الجواري المستجلبات من أرض الصقيع والبحيرات.

كلّف كهرمانة بالبحث عن جاريته التي رسمها بألوان شهوته ، وكلمات شاعره الخاص ، وأذكى عيون الدّلالات والقوّادات للبحث عنّها في أسواق النخاسة ودور عرض الجواري البارعات ، وأمّل الجميع بسخي الهبات والصلات ، فاستعرتْ نار البحث عنها ، إلى أن وُجدتْ في دار النّخاس اليهودي الأعور،

الذي يقدّر الجمال، ويجيد المقايضة به.

وما كان شهبندر التّجار يلمح الجارية طِلْبته حتى هان الذهب عليه، وزهد بكلّ شيء خلا الجارية الشمسية ذات الشعر الذهبي والعينين اللازودتيتين، وسرّه أن يخسر وافر المال في صفقة سريعة مع اليهودي النّخاس ما دام سيربحها، وكذلك كان.

فرح بجاريته التي قايض بها حبّاً وكرامةً ثروة طائلة تكفي لشراء سوق النّخاسة بأكمله، ولكنّه عدّ نفسه محظوظاً إذ ملك جارية تساوي ألف ألف درهم، تسعده، وتملأ دنياه حُبوراً وبهجة، في حين تملأ نفوس نسائه وجواريه حقداً وغيظاً وكدراً وحسداً، وهنّ يرينها تتمدّد على مضجعٍ من حرير وريش نعام، في حين ينكفئ شهبندر التّجار على قدميها يقبّلهما، ويستمرئ دلالها، ويجهد النفس لإرضائه، فهي جاريته التي عليها أن تبذل النفيس وقرّة العين لإرضائه، إذن لا ضير في إسعادها قليلاً، فهو السيّد الرحيم وهي الجارية الضعيفة، ولكن الويل لها إن فكّرت في أن تبيعه في سوق النّخاسة، إذ غدا لسوء حظّ جواريه ونسائه مملوكاً لها.

(٢)

المملوك المستضعف

عليه أن يكون شديداً وصارماً بل وقاسياً على مماليكه كي تسير الأمور على ما يرام، فيحسن إطباق قبضته على نفوسهم التائقة دائماً إلى التمرّد والعصيان والكسل، فقد تعلّم أنّ نفس المملوك تغلبه بكلّ سهولة، وتقهره على المعاصي والشهوات، وهو في سبيل ذلك أتقن فن سياطة جلودهم بنيران عذابه، فاعتدلوا، والتزموا الجادّة، وما عاد يلفي عندهم خطأ أو ريبة أو عصياناً.

اضطر إلى أن يجلد مملوكه ياقوت حتى أشرفتْ نفسه على أن تفيض؛ لأنّه عبد آبق لعين، ودفع بمملوكه غفران إلى يدي الوالي ليرجمه حدّ الموت؛ لأنّه وطأ جاريته الحسناء، وقطع يديّ مملوكة شهوان ورجليه على التوالي؛ لأنّه سرق زبيباً من مخدعه، ثم ألقى بجسده الجذع الباقي سرّاً إلى كلاب حراسته.

وما ألفى في نفسه ذرّة إشفاق أو ندم على قسوته على مماليكه، إذ يستحقون كلّ عقاب، وداعبتْ نفسه سعادة سريّة عميقة،إذ كان مملوكاً لشهوات جارفة،ورغبات منحطّة، انقاد لها

جميعاً، وما وجد يداً تضرب على ضعفه، فهو السيّد، ويدا السيّد لا يُضرب عليهما.

(٣)

جارية ولي العهد

قبضة من ملك الموت، ويصبح خليفةً لا ولي عهد، فقد أعدّ العدّة ليملأ عرشه العريض بجسده الهزيل الشّاب، ولُقّن فنّ الغدر والدسائس، ونال من المبايعات السريّة ما سيجعله يتزلق في عرشه بيسرٍ، ويحتلّ إيوانه المنشود دون أدنى اعتراضات أو ثورات أو انشقاق، لذا فقد طاب نفساً، وانقطع على جاريته الحسناء، واستولدها، فولدتْ له عاجلاً لكثرة ما علق رحمها من لذيذ شهوته.

وجاءت الليلة المنتظرة، السلطان كان في يدي الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة، والقصر لا ينام ينتظر المبايعة الجديدة، وهو في مخدع جاريته يعكف على تقديس جسدها المثير، ومداعبة طفله الرضيع، والشموع المتقدة هي الآية والإمارة على تواتر أنفاس الحياة في صدر السلطان المحتضر.

قبل الفجر بساعة انطفأت الشموع، وأُعلن الحداد في البلاد، وحمل ولي العهد لقب خليفة، وزفّ إلى عروسه المجهولة الملامح والقسمات ذات الحسب الرفيع، والنّسب المشهور، فعلى الخليفة أن يكون زوجاً لا أسير مخدع جارية، وأُجبر في الليلة عينها على إلحاق جاريته وابنهما الذي ما عاد يحسن به أن يذكر اسمه بجناح الجواري والحريم، وغالب بشجاعة منقطعة النظير رغبة تشيع جاريته الحبيبة بنظرة وداع، وفاته أن يراها كسيرة القلب، تطؤها تباريح العشق التي تهصر الجارية الحمقاء التي تقع في حبّ سيدّها، لا سيما إذا كان كلاهما مملوكاً لشيء اسمه المصلحة العامة وآداب السلطنة.

(٤)

مماليك السلطان

احتشد السوق بآلاف الفضوليين فضلاً عن مئات المشترين الذين جاءوا من شتّى أصقاع البلاد؛ ليشهدوا بيع مماليك السلطان، الذين كانوا في الليلة الماضية هم السلطان والقادة والوزراء والحجّاب وكتّاب الدواوين وفرسان الجيش والثغور،

وهاهم اليوم أشباه عراة يُعرضون في سوق النّخاسة للبيع بإمرة الفقيه الفاضل، الذي تبرّأ من طاعتهم وإمرتهم؛ إذ إنّهم لا يزالون مملوكين للسلطان المتوفى، وعليهم أن يُعتقوا حتى يملكوا الأهلية كي يحكموا البلاد والعباد، فأنّى لمن لا يملك نفسه، أن يحكم غيره؟ وقد نزلوا مكرهين على فتوة الفقيه الشجاع، وعُرضوا في الأسواق للبيع، على أن تشتريهم الدولة وتعتقهم، فيعودوا إلى سالف أماكنهم، وسابق عهدهم بالسلطة والحكم، وقد وافق الفقيه على ذلك حبّاً وكرامةً، وأعدّ العدّة لذلك.

كان عليهم أن يحتملوا هذا اليوم البغيض، الذي قرّروا أن يستمتعوا بطرافته بقدر ما يستطيعون حتى تمرّ سحابته السوداء، استسلموا للعيون الفضولية التي انهالت عليهم من كلّ حدب وصوب تتفرّسهم وتحفظهم عن ظهر قلب، في حين سمحوا لآذانهم بأن تتسكّع بين الحاضرين، وتسترق كلماتهم، وتحملها إليهم، سمعوا الكثير من سفاسف الكلام، ولمم الاستغابات، ووعود اللقاء والوهب والصرم، وسخروا من تنهدات الجشع، وزفرات الاشتهاء، وأحلام الكسلى والمنكودين، وما سمعوا أيّ كلام عن التصدّي لذلك العدو الذي يقبع على تخوم الأمصار، ويهدّد بحرب طاحنة لا تُبقي ولا تذر، في حين كانت عقولهم

تضجّ بالخطط والاستعدادات في سبيل التصدّي للعدو الآتي، وما استطاع كبيرهم المسمّى سلطان أن يقاوم فكرة لاحتْ في ذهنه، فخرج عن آداب العرض في سوق النّخاسة، وطلب خريطة جغرافية لحدود البلاد، جاءته الخريطة على عجل، وشرع يرسم خطة دفاع للتصدّي للعدو، والمماليك القادة من حوله يتابعون خطته باهتمام، وفاته أن يعرف السعر الذي دُفع فيه.

(٥)

ثورة العبيد

استجمعوا هممهم الخائرة، وألّفوا صفوفهم الشتات، واختاروا منهم قائداً ومتحدّثاً باسمهم، وأعلنوا الثورة في كلّ البلاد، وأسمعوا الدنيا صوت غضبهم، وأجبروا السّادة على النزول على رغبتهم، وتحقيق كافة مطالبهم، وتحريرهم من نير الحرية التي كبّلهم بها لعين سلّطته السماء عليهم، ليبدّد سعادتهم، ويطيّر راحتهم، ويحمّلهم وِزْر القلق بتأمين أمور المعاش بعد أن كانت مؤمّنة لهم دون عناء.

ذلك اللعين الذي هدم سعادتهم ادّعى أنّه جاء ليحرّرهم من

عبوديتهم، وليعتقهم من أغلالها التي ورثوها كابراً عن كابر، وأطاعوه لحمقهم ولغِرّ تجربتهم، فنـزل السّادة على رغبتهم المشتهاة، وحرّروهم، ففقدوا بذلك حمايتهم العريضة، والبيوت والخيرات التي كانوا يتنعّمون بها وبنيهم، وأصبحوا في ليلة وضحاها مشرّدين في الشوارع بلا معين أو مجير أو حتى قيود عبودية ذهبية.

فاستقرّ رأيهم على أن يستعيدوا جنّة عبوديتهم مهما كان الثمن، إذ فيها الراحة والأمن والعزّ، أعلنوا ثورتهم، وذبحوا محرّرهم على شرفها، ورفعوا دمه المهدور على أكفّهم الملوّحة بالموت للسّادة إذ لم يعيدوهم إلى حظائر رعايتهم، واعتصموا طويلاً حتى نالوا مرادهم، وانتصرتْ ثورتهم البيضاء العادلة، وعادوا عبيداً في أكناف السّادة، وفي عيون حمايتهم، وقرّتْ عيونهم وقلوبهم بذلك.

عام النّمل

لم تكن مملكة النّمل معنية بأيّ تواريخ أو أزمنة أو تسميات؛ إذ كانت مصلحة الجماعة هي ما تعنيها، في حين تضرب صفحاً عمّا هو دون ذلك أو ما فوقه، وإن كانتْ تواريخ محفورة في ألواح التاريخ بالذهب أو بالدم، أمّا الزمن فهو في عُرفها حالة فراغية لا تعرف لها تحديداً مقيتاً كالذي يعرفه البشر، وكلّ ما كان يعني مملكة النّمل هو تقويض ذلك العرش الذهبي الضخم الذي رُكّز تماماً فوق مخازن الغلال والمؤن، فباتَ يهدّد مملكة النّمل بالجوع وهي مقبلة على فصل الشتاء، حيث لا متسع لجمع مؤنٍ جديدة أو نقل محتويات المخازن العتيقة المأسورة تحت العرش، وما كانت المملكة لتتخلّى عن مقدّراتها وممتلكاتها، فالتمسّك بالحقوق هو قانون النّمل المقدّس.

بعثتْ مملكة النمل رسولاً إلى سلطان عرش البشر تسأله أن يغيّر مكان عرشه، فيخلي بين النّمل ومستودعاته، لكنّ السلطان ذا العرش الماسي سخر من ضعف الرسول النّملة، وداسه بنعله

دون أن يعبأ بدوره المقدّس، فمحقه محقاً، وجلجل الإيوان بضحكات استهتاره وانتصاره المؤزّر على الرسول النّملة، إذ ظنّ أنّه قد هدر كرامة مملكة النّمل الوقحة بسحقه لرسولها الأسود الصغير ذي الأيدي المرتعشة.

صمّمت الملكة النّملة على أن تسترجع المؤن المسلوبة، وعلى أن تمزّق كِبْر السلطان البشري العابث، وأن تهدّم عرشه المسكون بالتجبّر وآهات المستعبدين من شعبه، وأعلنتْ أنّ مهمة تقويض عرشه هي واجب مقدّس على كلّ نملة محبّة لأهلها، مؤمنة بقضية أرضها وشعبها، وأطلقتْ صفير النفير الذي لبّى الجميع نداءَه المقدّس.

كانت المهمة شبه مستحيلة، لكن كرامة النّمل المطعونة غدت المحرّك والفتيل لأتون العمل والجهاد،في غضون شهور قليلة مزّق النّمل بأفكاكه القوية بالعزم والعمل الدؤوب، والواهية أمام الصّلب والخشب عرش السلطان، فتهالك العرش،وهوى بسلطانه الجائر الذي قضى صريعاً،وما وجد من شعبه من يرثيه إذ كان مكروهاً لا يناسب جوره رثاءٌ أو ترحّم، وكان الشعب الذي لاك جوره دون أن يزفر زفرة احتجاجٍ أو رفض مشغولاً بتسجيل مآثر عام النّمل وتدوين مفاخره؛إذ غدا تاريخاً حاسماً تؤرّخ به

الأزمان **القاتمة والثورات المقدّسة.**

- **من تقويم عام النّمل:**

(١) في عام (٥٠) من عام النّمل غلب سلطان ذو عرش ذهبي على مملكة النّمل.

(٢) في العام نفسه أَعلن النّمل النفير المقدّس على السلطان الجائر، ورهط من المؤرّخين من البشر.

(٣) في العام (٥١) من عام النمل أُلغي التقويم النّملي، وأُعتمد رسمياً التقويم السلطاني.

(٤) في العام (...) من عام النّمل، وبعد ثورة مقدّسة أعلنها النّمل عاد التقويم النّملي، ومن جديد أُرّختْ به الأزمان القاتمة والثورات المقدّسة.

ولادة متعسّرة

ولادتها كانتْ متعسّرة جداً، وبدا أنّ خروج طفلها الذي لبث في رحمها عاماً ونصف أمراً مستحيلاً، وخمّن الأطباء أنّ تعسّر ولادتها مردّه إلى حجم الطفل الكبير الذي لا يكاد جسد امرأة مهما بلغ أن يقدر على أن يدفعه خارجه عبر معبره الطبيعي لذلك، وأجمع الأطباء على ضرورة إجراء عملية قيصرية لتحرير الطفل من رحم أمّه.

وفي ليلة وضحاها أُعدذتْ غرفة العمليات للعملية الاستثنائية، وأحيطت الأم بشيء من الاهتمام عزّاها عن الانتظار الطويل لهذه اللحظة، إذ جاءها المخاض في الماضي على وقته، لكنّ الأطباء صمّموا على أن عليها أن تلتزم بالدور، وأن تحجز مسبقاً على الأقل بشهر أو شهرين للولادة في المستشفى الحكومي الذي لا تستطيع أن تستغني عن خدماته الضئيلة والمتواضعة بسبب فقرها المدقع، وقد كان الأمر صعباً في الساعات الأولى من آلام المخاض، وكادتْ تشعر بوليدها

يترلق من بين فخذيها، لكنّها صرّت نَفَسَها بقوة، وضمّتْ فخذيها بإصرار، ومنعتْ انزلاق جنيتها خارج رحمها خلا ماء الزلال الذي تترّى من بين فخذيها، وسقط أرضاً، وعقدت النية على أن تستلقي على ظهرها إلى أن يحين موعدها بعد شهرين مع الطبيب الحكومي لتضع مولدها الأوّل.

وجاء الموعد المضروب للولادة بشقّ النفس، وبوافر ضمّ الفخذين، وعميق صرّ الأنفاس، لكن الولادة أُجلّتْ من جديد بسبب ظرفٍ طارئ استدعى أن يأخذ الطبيب إجازة طارئة بسببه، ثم أُجّل مرة ثالثة بسبب أعمال الترميم في المستشفى، كما أجّل مرة رابعة؛ لأنّها كانتْ متورّطة بحفلة تنظيف وغسيل، كذلك أجّل مرة خامسة؛ لأنّها ما عادتْ تبالي بأيّ مواعيد مضروبة، أو بولادة محتملةٍ.

ولكنّها عادتْ من جديد تفكّر بوضع حملها بعد أن أثقل عليها، وأصبح تكوّر بطنها بحجم برميل صغيررررر، ورمقها الرجالُ بالريبة، واقمتها النساء بالكذب والدجل، فما وجدت مفرّاً من أن تعود من جديد إلى المستشفى، وأن تأخذ موعداً جديد حرصتْ على الالتزام به، ودعت الله بضراعة كي لا يجدّ طارئ ، فيؤجّله من جديد ، وأسلمتْ نفسها لمباضع الأطباء ولمشارطهم

ليخلّصوها من حملها العجيب، فشقّوا بطنها، ووجدوا جنينها متكوراً في رحمها، حاولوا أن ينزعوه عن مكانه الدافئ، لكنّهم فشلوا في ذلك مرةً تلو الأخرى، فقد كان الجنين مصمماً على أن لا يغادر رحم أمّه هذه المرة إلاّ وفق رغبته، لا وَفْقَ رغبتهم، ولأنّه كان مطمئناً في عالمه اللحمي الصغير مستمتعاً بوجيب قلب أمّه، فقد قرّر أن لا يغادر رحم أمّه أبداً، وتجاهل بإصرار توسّلات الأطباء والممرضات وبعض المرضى المارّين من المكان ورجال أمن المستشفى والمحاسب وطبّاخ المستشفى وحارس المرآب والمحاسب والمذيعة الشقراء والمصور الوقح ذا العينين المتلصصتين الذين تضرّعوا له دون جدوى كي يغادر رحم أمّه، لكنّه ضرب عرض رحم أمّه بتوسلاتهم.

حدث في ليلة ماطرة

كانوا جميعاً في انتظارها، ولكن لحظة انفتاح الباب وتّرَتْ دماء قلقه، انتصبتْ قبالتهم جميعاً، جسدها الصغير لا يناسبه ذلك العدد الكبير من الأكياس التي تحملها، لا بدّ أنّها قامتْ بالتسوق قبل أن يداهمها مطر الشتاء لأوّل مرّة في هذا العام، فيبلّلها تماماً، ويبعثر شعرها الأسود القصير، ويتسبّب باتساخ ملابسها القديمة، ويتزلق عبر ثغرات حذائها المتهرئ، أدارتْ نظرةً وجلى في المكان، بدا عليها القلق والتوتّر، توقّع أن تسأله عن هوية أولئك الرجال الثلاثة أصحاب البدلات الرسمية الباذخة والنظارات السوداء والحضور غير المتوقّع، لكنّها لم تفعلْ، تسمّرتْ في مكانها صامتة مرتبكة، ذليلة بشكل لم يصدفه من قبل، ولم يألفه فيها، انزلقت الأكياس من يديها بتؤدة، واستقرّتْ على الأرض، في حين صفعتْ دفقة هواء باردة وجوه الموجودين، وقدّر أنّها تنتظر أن يعرّفها على الضيوف أو يخبرها بسبب زيارتهم المفاجئة.

كاد يتراجع عن قراره القاسي بحق هذا الملاك الطيب الذي أنفق حياته في خدمته، وفي التفاني في عونه، وفي تشجيعه ورفده برؤوس الأموال الصغيرة وَفق قروضه من عمله الطويل لتمويل مشاريعه الفاشلة على الدوام، لكنّ العرض كان أكبر من أن يُرفض، أو يُفكّر به، أو يتضاءل أمام حبّ أو عقدة ذنب أو مشاعر امتنان. فهذه هي فرصة العمر التي جاءت لتعوّض خسائر ما كان يظن أنّها ستُعوّض يوماً، والخياران أمامه واضحان ومحدّدان، إمّا أن يختار قلب زوجته التي كاد شبابها ينشرخ ويتداعى، أو أن يختار ثراءً فاحشاً سيحصل عليه فور قوله للرجال الضيوف: "هي لكم... خذوها".

فقلبها هو القلب الوحيد الذي يناسب طبيّاً جسد زوجة حاكم المقاطعة، وهو على استعداد لدفع شطر ثروته مقابل الحصول على ذلك القلب، لكنّه في الوقت نفسه لا يريد أن يحرق قلب زوجٍ على رفيقة دربه، لذا أرسل بعضاً من خاصة رجاله والمؤتمنين على أسراره ليفاوضوه على ثمن قلب زوجته الذي لم يجد غضاضة في أن يقايضه بثروة هبطتْ عليه من السماء، ستحوّله في ليلة وضحاها إلى ثري يشتري بماله أجمل نساء الأرض، فينسى بهنّ زوجته الحنون التي باع قلبها؛ ليشتري سعادته.

ألقى نظرة أخيرة على زوجته التي ترتعد في ممطرها القديم، وأشاح بوجهه عنها بعصبيةٍ واضحةٍ، وقال للرجال بحزم: "خذوها، هي لكم". تنحنح الرجال، وشمّروا عن سواعدهم القويّة، فبرزتْ عضلاتهم المتكوّرة حدّ الانفجار، وانتظروا إيماءة من رأس الزوجة الحزينة، التي قالتْ بحزن وبقرفٍ بادٍ وبخيبة أمل مشبعة برغبة الانتقام: "خذوه، هو لكم... وأخبروا زوجة الحاكم أنّني في انتظار المبلغ المُتفق عليه غداً فور إجراء العملية لزوجها المريض".

أقاصيص رجل لا ينام

"عندما يُصاب عقل الرجل بالأرق،
يصاب قلب المرأة بالأرق، وشتّان بين
الأرقين".

خشي أن ينام فيسهو لحظةً عن معبودته اللوحة التي لم تكتمل، إذ كان رسامّاً خانته الألوان في هذه الليلة، واستعصتْ عليه الأفكار، وخشيتْ أن تنام، ونومه لم ينم. كان يحتضنُ امرأة في كلّ ليلة، وإن لم يجدها في الألفة رسمها بالظلال والوحشة، وكانتْ تحتضن طيفه في كلّ ليلة، إن عزّ عليها أن تحتضنه في أرق الليالي المضنية، حيث باتتْ تحتضن الحرمان والكلمات.

وفي معركة صامتة بين الظلال والكلمات كانت الأقاصيص التي لا تنام، قطعتْ الليالي تقصّ الحكايات عليه، وقطعت النّهارات تكتب له الحكايات، لتقصّها عليه ليلاً، فغضب عليها إله السُّهاد، وطردها من مملكته، فأقامتْ على حدود مملكة أمير الألوان. في كلّ ليلة حكتْ له حكاية، وولدتْ له أسطورة لم يعرفها غيره من البشر.

بعد ألف سنة ضوئية من قصّها ومن إنصاته إليها هتف بها

آمراً: "عليك أن تكتبي حكاياتك، وسأنتظرُ أن تسرديها عليّ من جديد". وانتظر... وانتظر... وطال انتظاره، لكنّها لم تعد لتكمل نذر الحكايا؛ لأنّها وُجدتْ ميتة من شدّة الإعياء والنّعاس، وفي يدها قرطاس خُط عليه بدموع المآقي وجهد النّعاس: "أقاصيص رجل لا ينام".

حذاء عنترة

اسمه عنترة، وسعادته المؤجّلة رغم أنفه تتلخّص في حذاء جديد، يريده جلديّاً بنيّاً لامعاً كالذي ينتعله عرفة ابن الوجيه حمدون، يريده بنعلٍ ضخمٍ أسودَ، يصكّه بالأرض دون أن يخشى عليه من أن يتمزّق أو أن تخترقه قطعة زجاج أو مسمار قديم أو حصاة مطروحة على الطريق، مرّة شمّ رائحة حذاء جديد من أحذية عرفة، رائحة الجلد زكمتْ أنفه، وأغرته عيناه المأخوذتان بجمال الجلد الجديد بأن يمسّد عليه، وسمح لنفسه بأن تتمنّى الحصول على حذاء مثله على غفلة من عيني أم عرفة التي ساءها أن يدخل عنترة الفقير إلى حديقة منزلها الغنّاء، فقامتْ تصليه بثاقب نظراتها.

ما كان ليستطيع أن يطالب أمّه المتكومّة في غرفة صغيرة في فناء بيت خاله الوحيد أن تعده بحذاء مثله، فقد كان متأكداً من أنّها لو كانت تملك ثمن عشرة أزواج من الحذاء الذي يحلم بالحصول عليه، لما كانت تقبل بأن تعيش لحظة واحدة حياة

دجاجة في قنّ خاله حيث الأولاد الكثر، والضرائر المتناحرات، والطعام القليل، والزعيق الذي لا ينتهي، ولا يُفسّر في الغالب.

وكاد ينسى حلم الحذاء الجلدي الجديد، إلاّ أن رائحته المزيج من الجلد والنظافة والاستدعاء الخفي له بقيت تطرق تمنّيه دون كلل، وتحرّضه على امتلاكه، إلى أن أذعن لتلك الرائحة العجيبة، وانسربْ يؤمّل نفسه التي ليس لها من قوة عنترة المشهور رمز البطولة وجلال عظمته إلاّ شذرات الحرمان والنبذ والشقاء، بأنّ يجود عليها بحذاء جلدٍ في زمن ما.

كان يتمنّى لو كان له قوة عنترة، إذن لكان استثمرها ليحصل على حذاء جلدي جديد، لكن ما كان له من عنترة إلا الاسم الذي يحمل في طياته مفارقة غير مفرحة، إذا كان هزيلاً قميئاً يكاد يزدري طفولته القاحلة، ويحقرّ نفسه لولا إغداق أمّه عليه بوافر القبلات المعطّرة بالأمنيات التي ما انبرتْ تستنهض في نفسه شيئاً من المزهو الكسير بنفسه.

وقرّر أن يحصل عنترة ولو لمرةٍ واحدة في عمره على شيء يريده دون أن تثنيه أمّه الأرملة الكسيرة عنه، أو يتناوشه أولاد خاله الكثر الذين يفوقونه قوة وحصانة من يديه قهراً وتجبّراً، وانسلّ يوفّر مصروفه غير المنتظم وفقاً لطقس مزاج خاله الديك،

وانقطع يعمل في طاحونة العمّ عايش، ينظف المكان، ويعدّ أكياس الحبوب، وينظّم أدوار الطحن والاستلام، ويداعب ثور الطاحونة المضني من وقت إلى آخر، وينقل الماء إلى بيت العمّ عايش، وينظّف حديقة بيته مرّةً في الأسبوع على الأقلّ.

وحققّ عنترة المستحيل، وحصل على حذائين جلديين بنيين بنعلين سميكين، أحدهما حصل عليه بنقوده التي ادّخرها بصعوبة من عمله السّري، والآخر اشترته أمّه له بعد تفكير طويل، فقد ضحّت لأجله بقرطيّ عرسها، الباقي الوحيد من ذكريات سعادة اسمها زواج هانئ بعد قصة حبٍّ هادئة وسريّة. فرح عنترة بحذائيه الجديدين، وإن فكر على مضض بأن يعرضهما على عرفة ليشتريهما ولو بنصف ثمنهما، فما عاد في حاجة إليهما بعد أن انزلق في حفرة الساقية، وقُطعت إحدى قدميه، وبقيت الأخرى وحيدةً مجذبةً، لا تحلم بحذاء جلدي بني جديد.

الموزة اللغز

جاء المستوطنون أصحاب العيون الزجاجية والأكفّ الدامية والشَّعر المتجعّد إلى هذه الأرض التي لم تطأها قدم غريبٍ من قبل كي يحصلوا على تلك الثمار العجيبة المسمّاة موزاً، فقد بشّرهم قادتهم بها، وتفنّنوا بوصفها حتى وقعت في النّفوس، ووقرتْ في الخيال، وما انفكتْ تداعبُ البطون المشتهية بلا انقطاع، والأيدي الطامحة إلى الجني وإلى القطاف.

لم يعرفوا الموز من قبل، ولكنّهم قرأوا عنه في رحلة مستكشفهم الأوّل، ولمّا كانوا ممن لا يطيقون صبراً على أن تستحوذ أيديهم على كلّ جديد أو غريب، فقد دشّنوا سفناً جديدة، وأعلنوا النفير المقدّس في سبيل الحصول على الموزة الكنز، وأسموا هذه الحملة البحرية التي ستقطع بحر الموت بحملة (الموزة ١)، وانسربوا يفتكون بالمسافات وبالأمراض البحرية، ويجالدون البُعاد والنأي عن الأحبّة من أجل الموزة التي ذكرها الرحّالة الأوّل ، وكثيراً ما انقطعوا

يتدارسون ويستذكرون وصف تلك الموزة في نسخهم الكثيرة والمحرّفة في الغالب عن المخطوطة الأم للرحلة.

ورد ذكر الموزة في أكثر من رواية، وفي متن جلّ المخطوطات التي تؤرّخ لرحلة مستكشفهم الجريء، لكن الرواية الأشهر كانت رواية الخلد، إذ قيل فيها: "الموز نبات أو حيوان شبه استوائي، أصفر اللون، هلالي الشكل، زكي الرائحة، سحريّ الملمس، لذيذ الطعم، له قدرة خارقة على الشفاء من أمراضٍ كثيرة، وهو في الوقت ذاته يسبّب التلبّك المعوي واضطراب الإخراج".

حفظ البحّارة المستوطنون هذا الوصف عن ظهر قلب، وأطلقوا العنان لمخيّلاتهم المتحفّزة الطموحة، فخالوا الموز نباتاً من نباتات الخلد، أو حيواناً أسطورياً نادر الوجود يستطيعون أن يتغلبوا على قوته، وأن يأسروا منه جماعات وزرافات، ويبعوها في أسواق المعمورة، وقد يكون قوياً، فيحلّ مكان الخيل التي أعيتهم تدريباً وترويضاً، وإن كان بحجم نجمة أو قمر صغير ما دام هلالي الشكل، عندها سيجمعونه، ويثقلون بواخرهم العملاقة به، ويبيعونه ثريات وقناديل للقصور ولبيوت الأثرياء ولسدنة المال، فطالما أنّه على شكل هلال، فلا بد أنّه يملك قوة إنارة ذاتية شأنه شأن الهلال.

أمّا إن كان كائناً عطرياً فإنّهم سوف يصنعون منه أغلى أنواع العطور، التي لا تطالها إلا أيادي المتنفذين وأهل الحلّ والربط، وقد يجمع الحسنيين، فيكون عطري الرائحة، مخملي الملمس، فيُباع اليسير منه بطائل والمال، والخير كلّه فيه إن جمع المتع الثلاث، فكان عطري الرائحة مخملي الملمس ذا خصائص شفائية، عندها سيخيطون منه ملابس سحرية، تُسمى "ملابس الشفاء"، ويجعلونها طلبة للمرض وللمستشفيين، وسيقايضون الصحة بعظيم الثمن، وسيتخذون القليل من المال ليصنعوا من ذلك الموز العجيب سموم فتّاكة، يدسّونها للأعداء وللشرفاء وللمغضوب عليه.

ضجّت مخيلات البحّارة بآلاف الفكر والتصوّرات والأمنيات، حتى ما كاد يتسعها عقل، أو يبين عنها لسان، ووصلوا إلى الأرض المقصودة بعد أشهر من الإبحار، فمشطوها تمشيطاً، وذرعوها أرضاً وسماءً وبحراً، فما وجدوا إلا ثماراً صفراء لعينة، طيبة المذاق، زلقة القشور، نفّاثة الرائحة، وفيها عيبٌ كبير سيحطها في عيون المشترين، فهي مقوّسة الشكل والهيكل، مبعوجة الوسط، واسمها كما قال السكان المحليون باستهتار بعد أن علموا أن حملتهم تحمل اسمها "الموز".

حتى النصر...

على حين غرّة داهمهم عدوّ أسود أعدّ العدّة لكلّ شيء، حتى أنّه مهدّ طريقاً جبلية وعرة سرّاً كي ينسربوا عبرها إلى رؤوس الجبال وأرض ما وراء البحر كي تخلو له الأرض، إذا كان لا وقت عنده ولا مزاج لجمع الجثث، وحفر القبور الجماعية، وإنهاك أجسادهم المدجّنة بالأسلحة والخمر وعرق البغايا بمطاردة السكان جماعات وآحاداً، واغتصاب النساء، وبقر بطون الحوامل.

تدفّق الأهالي الذين يحملون ذكرى أرض، ويحتضنون خوفهم بدل أن يتحزّموا بأموالهم وأبنائهم عبر الطريق الجيلي الممهّد، يقودهم الذُعر، وتحثهم رغبة النجاة على حضّ الخطى على التسارع والاتساع كي يفرّوا من وجه الموت القادم الذي يحفظون الكثير من قصصه الدامية.

في ساعات سوداء خلت الأرض من أهلها أولي القسمات الطيبة، والأيدي التي حفر فيها العمل المضني في الحقل خطوطاً لا تندمل، وأقفرت البيوت الطيبة من أهلها إلا من زهيّة العمياء،

فقد بقيتْ في بيتها متحدّية بعينيها المظلمتين منذ أزل وبثوبها ذي الرقع الكثيرة وبسنينها السبعين الشقية عدواً مسلحّاً بكلّ شيء إلا بالحق. أصلتْ زهيّة العدو كيفما اتفق بحجارتها مدافعة عن بيتها، رافضة أن يُدنّس بقدمي عدو محتلّ.

احتلّ العدو كلّ الأرض خلا بيت زهيّة المنافحة الوحيدة دون أرضها، وطفقت توطّن النفس على الصّبر، وتؤمّلها بالثبات حتى النصر في انتظار عودة الأبناء الذين اجتمعوا في محفل وطني شعبي خلف بلاد البحر، وقرّروا أن يدافعوا عن وطنهم السليب حتى النّصر، وكانت أوّل بنود خطتهم النضالية الخمسينية أن يغتالوا زهية العمياء؛ إذ كانتْ وصمة عار في تاريخ تخاذلهم.

إذن استثنائي خاص

بمحض إرادتها الجبّارة التي جعلتها تحيا ملايين السنين على هذا الكوكب النيراني المخيف قرّرت في لحظة شجاعة مجنونة أن تتخلّص من ذلك الكائن البغيض الذي اسمه رجل، فقد أنهكها خصاماً وشجاراً وتكبّراً ولؤماً، وما وجدتْ له فائدة سوى التلقيح للحفاظ على جنسها ذي الدم الأزرق، خلا لحظات ودّ وانسجام تستطيع أن تعدّها على أصابع اليد الواحدة لندرتها، ولا يضيمها أن تفقد أمثالها إلى الأبد.

حصلتْ على إذن استثنائي خاص من جهة مجهولة لتذيب هذا الكائن الرجل، ولتصنع من ذائبه كائناً جديداً، يحمل اسم رجل، ولكن وَفْق ما تتمنّى، لا وَفْقَ صفات الرجل الأوّل الكريه.

لم تجد المرأة صعوبة في اصطياد الرجل، وهصره في ماعون تجاربها، وذاب الرجل وتبدّد، فألفت المرأة في نفسها راحة عجيبة شابها حزن مداهم غير متوقّع، ثم زفرتْ زفرة راحة عميقة،

انتزعتْ غلّ قلبها، وأورثتها رغبةً مفاجئةً في البكاء، ولكنّها ما أطاعتْ رغبتها، وانبرتْ ترسم الخطوط العريضة للكائن الرجل الذي تريد أن تصنعه من ذائب الرجل الأوّل.

استغرقتْ سنين لا تكاد تُحصى لكثرتها وهي تنجز رجلها الحلم، وأعادتْ صناعته مئات المرات، إذ كان فيه خللاً خَلْقياً أو خُلقياً خطيراً في كلْ مرة، ثم استقرّ إبداعها على الصيغة النهائية للرجل الأخير، وعجبتْ من أنّه كان صورة طبق الأصل قلباً وقالباً من الرجل الأوّل المذاب، لكنّها ما بالتْ كثيراً بهذا التشابه العجيبُ بين الرجل المخلوع والرجل الحلم، إذ ما كان في عمرها من سنوات متبقّية لا يكفي لتجربة صنع أخرى، وكان بين جنباتها اشتياق وحزن عظيمان، لا يناسبهما إلا أشواق رجلٍ طال انتظاره.

زوجة الحذّاء

حياتها تتلخّص في كلمة جحيم، وقلبها هو من قادها بلا فخر إلى هذا الاحتراق الدائم، فهو قلب مشاكس مولع بحبّ من لا يحبّونه، تفتنه الأشياء التي لا يستطيع أن يحصل عليها، فيتقّد رغبة بامتلاك البعيد، وعندما يفشل في ذلك يسقط في أحزان لا تعرف نهاية، فلا يستطيع أن يسعد بما، ولا أن يحبّ مَنْ يحبّه، فيهب القلوب المحبّة له ألماً مجانياً، لا يعرف رأفة بأصحابها، فيورثها ذلك المزيد من النّكد والضّنك والضيق.

ليستْ فاتنة الجمال، وذلك يقطّعها حزناً، وهي عاقر؛ ولذلك تحقد على كلّ رحمٍ حمل طفلاً، وتمقتْ أطفال الدنيا أجمعين، لم يخطبها إلاّ حذّاء الحي القديم، فرفضته، ولّما لوّحتْ لها العنوسة بكفّها الخشنة وبجدائلها البيضاء وبسحنتها الشمطاء قبلتْ بالزواج بالحذّاء على مضض، ولكنّها ما عدّته يوماً زوجاً بل خادماً بغيضاً تضطر من وقت إلى آخر إلى أن تعاشره وإلى أن تلقمه شفتيها نكداً وكدراً، وأن تشتم فيه رائحة الأحذية القديمة

المهترئة التي يصلحها، أو تلك التي يصنعها، ولو كان قد استحمّ للتوّ، فتمقتْ لحظة ارتوائه، ويزداد رثاؤها لنفسها، فالجمال والغنى والأبناء الذين تحبهم لم تحصل عليهم، والحذّاء الذي يحبّها لا تطيقه، فأيّ نكد تعيش؟! وأيّ ذنب اقترفتْ لتُبتلي بقسمة كهذه، وبقلب يصعب إرضاؤه كقلبها؟! ليت السماء تستردّ قلبها أو حياتها الضنكة.

ذلك الأسمر الفاتن ذو القسمات البارزة وعظام الفكين الحادة والشّعر الأملس الزاخر بسواد مُعطى له بسخاء هو الإنسان الوحيد الذي تحبّه، وتبادله حبّاً بحبّ، وقد دبّرت خطة يصعب تذكّر تفاصيلها لمقتها إيّاها كي تهجر زوجها، وتهرب مع ذلك الأسمر الوسيم الذي لها زهد عندما لوّحتْ له جارتها الشّابة بثديين كبيرين وساقين بيضاوين يضجّان بحمرة شهية واكتناز غضّ، فعادتْ كسيرة إلى زوجها الحذّاء الطيّب، الذي رثى لحزن زوجته المطلاب الغضوب غير القنوع، وسهر ليلة كاملة يصنع لها حذاءً مخمليلاً رائعاً، لعلّه يسعدها، ويغيّر شيئاً من تعكّر مزاجها الذي لا يعرف له سبباً، ولا يشمّ فيه رائحة الأسمر الفاتن ذا القسمات.

قلّبتْ الزوجة الحذاء، وهي ترقبُ بنظرة خفيّة متسلّلة يديّ

زوجها اللتين أصيبتا بأكثر من جرح بسبب إبرة أو مسلّة؛ لأنّه صمّم على أن يصنع لها حذاءً على ضوء مشغله، وهو ضوء خافت لا يناسب نظره الضعيف، أو ثقب إبرة، أو جنوح مسلّة، ندتْ منها لحظة رضىً لم تألفها في نفسها، ضغطتْ بامتنان دافئ على يديّ زوجها، وطبعتْ عليهما قبلةً ناعمةً تحسّستْ على مهل أديمه الخشن المضني، فاهتزّ قلب الحذّاء طرباً وعشقاً، وكادتْ تطير من عينيه دمعتا فرح غامر هزّ أركانه، وانحنى على قدميها الصغيرتين، وشمّر عنهما، ودسّ فردتي الحذاء فيهما ولهان يتخبّط انفعالاً وتوتراً، حدّقتْ الزوجة طويلاً بزوجها المنتشي كسنبلة تستقبل رذاذ مطر، وقالتْ له: "هذا الحذاء جميل لغاية، ثم عادتْ إلى صمتٍ عميقٍ تعجب فيه من نفسها التي ما أعارتْ اهتماماً من قبل لذلك الأمير الوسيم الذي يجثو عند قدميها، واسمه زوجها.

شكرت الله بعمق على أنّ زوجها ليس مولعاً بالأثداء المتغوّلة أو بالأقدام الأنثوية المكتنزة، إذن لكان اليوم بين يديّ جارتها الشابة الجميلة، وما كان الآن يجثو عند قدميها ليتلقّط نزير رضاها، ونادر امتنانها، وقالتْ من جديد وهي تهزّ رأسها الصغير: "نعم... هذا حذاء جميل للغاية".

لم يحرْ الحذّاء جواباً، ولا عرف سرّ صمت زوجته، ولكنّه عقد النية على أن يهدي زوجته حذاءً في كلّ ليلة؛ إذ أيقن أنّ الأحذية الجميلة هي مفتاح قلب زوجته، أمّا هي فقد طفقتْ تستمتع بحياتها، وتفخر بأنّها زوجة حذّاء يهيم بها عشقاً، بعد أن انتصرتْ على قلبها العنيد، ولقّنته فنون الإطاعة وحبّ من يحبوّنه، وكذلك كان.

عنوان المؤلّفة

الأردن – عمان – ١١٩٤٢

ص.ب ١٣١٨٦

البريد الالكتروني :

Selenapollo@hotmail.com

رقم الإيداع بدار الكتب
القطرية: ٢٠٠٧/٣٤
الرقم الدولي(ردمك):٨-٨٠-٤٣-
٩٩٩٢١